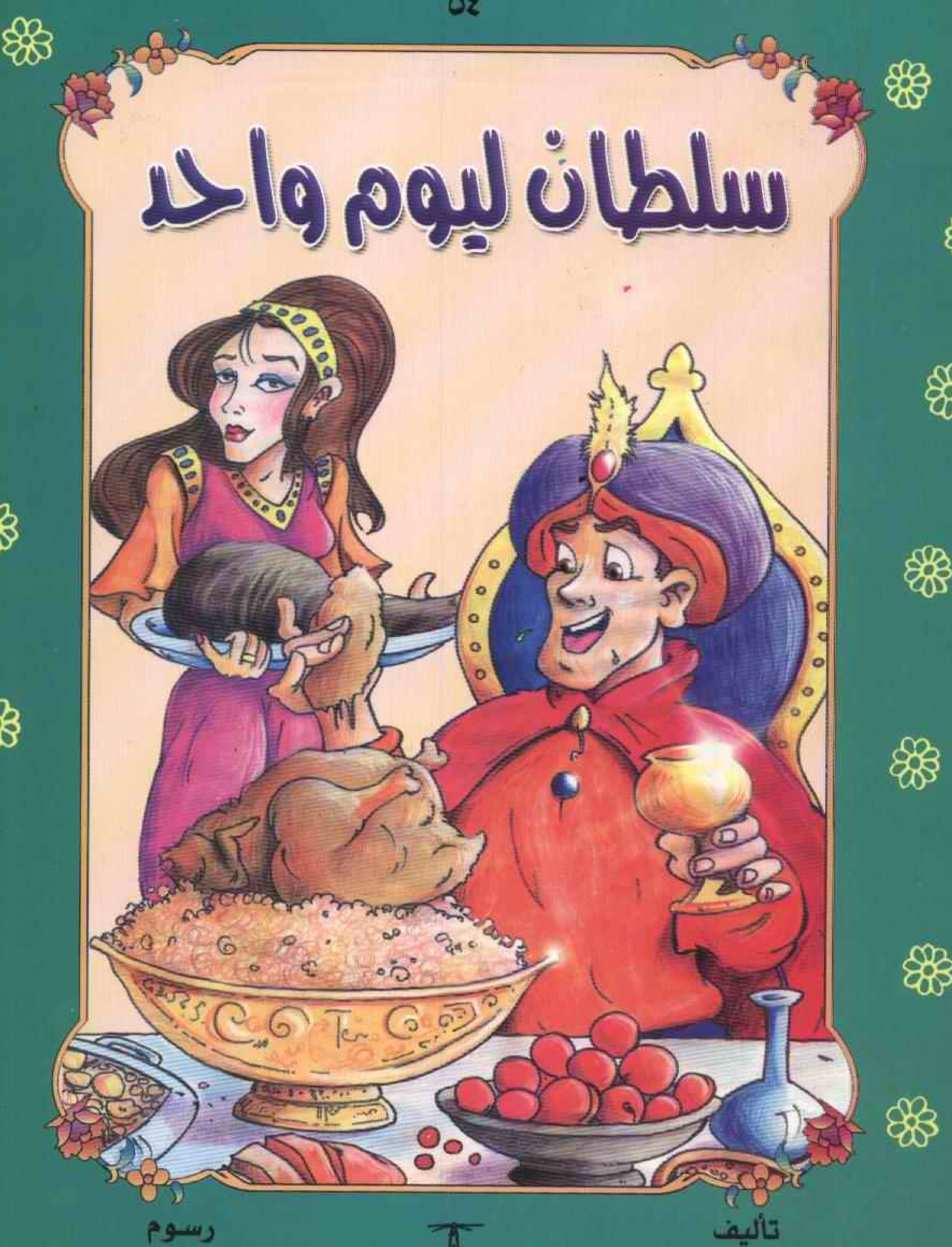
المكتبة الخضراء للأطفال

٥٤



سلطان ليوم واحد

تأليف
يعقوب الشارونى

رسوم
تامر الشارونى

دار المعارف

المكتبة الخضراء للأطفال



سلطان ليوم واحد



تأليف
يعقوب الشارونى

رسوم
تامر الشارونى



١

"هَلْ رَأيتِ يا والِدَتى كَيفَ تَراجَعَ بائِعُ المَاسِ عَنْ وَعْدِهِ بَعْدَ وَفاةِ والدى، ورَفَضَ أن أتزوَّجَ ابنتهُ نَجْمَةَ الصَّباحِ؟!"

رَبَتتِ الأمُّ فى رفْقٍ عَلَى كَتفِ ابْنِها تُخفِّفُ عنه وهِىَ تَقولُ:

"مُنذُ اكتشَفْنا أنَّ "نَجْمَةَ الصَّباحِ" هِىَ التى تَبيعُ الماسَ فى دُكَّانِ والِدِها مُتخفِّيَةً فى مَلابسِ الرِّجالِ، ونحنُ نَعْرِفُ قُدْرَتَهُ على التَّلاعُبِ وإخْفاءِ حَقيقتِهِ".

قالَ أبو الحَسَنِ ساخِطًا: "لَوْ كُنْتُ قد تزوَّجْتُ نَجْمَةَ الصَّباحِ لأصبَحْنا عائلةً واحِدَةً!.. كيفَ أثقُ فى النَّاسِ بعدَ اليَوْمِ وقد تخلَّى عنِّى مَنْ ظَنَنْتُ أنه سيُصبحُ أقْرَبَ الناسِ لى؟!"

قالَتْ والدتُهُ مُستنكِرَةً: "لا تَسمَحْ لثقتِكَ فى الناسِ أن تهتزَّ يا بُنىَّ.. الخَيْرُ فى الدُّنيا أكثرُ من الشَّرِّ!"

انتفضَ أبوالحَسَنِ واقفًا وراحَ يتمشَّى بقَلْبٍ جَريحٍ فى قاعَةِ بَيْتِهِ المُتَّسعةِ وقد عقدَ يدَيْهِ خلفَ ظَهْرِهِ.

فَجأةً تَوقَّفَ أمامَ والدَتِهِ وصاحَ: "سأقتسمُها قِسْمَيْنِ!"

انتابَتْ والدتَهُ دهشةٌ شديدةٌ: "هل يُمكِنُ اقتسامُ مافى الدنيا من خَيْرٍ وشَرٍّ؟!"

ضَحِكَ أبو الحَسَنِ على الرغمِ من أحزانِهِ: "أقصدُ الثروةَ التى ورثتُها عن والِدِى!"

لم تَفْهَمْ والدتُهُ ماذا يَقْصِدُ!

قـالَ مُوضّحـا: "بائعُ الماسِ طَلَبَ أنْ أضاعِفَ ما يجـبُ أن أدفعَهُ له مَهْرًا لابنتِهِ.. تَصوَّر أنني سـأخْضَعُ لاستِغْلالِهِ ولَنْ أترَدَّدَ فى تَبْديدِ ما وَرِثْتُهُ مِنْ مالٍ ما دامَ المَالُ كُلُّهُ قد أصْبَحَ مِلْكًا لى، فسَألْتُ نَفْسِى: هل يتَصوَّرُ غَيْرُهُ مِن أصحابى نَفْسَ التّصوُّر؟"

قالَتْ والدتُهُ فى فَزَعٍ: "هل ستُوزِّعُ عليهم نِصْفَ ثَرْوَتِكَ؟!"

عـادَ أبو الحَسَـنِ يَضْحَكُ وهُـوَ يَقولُ: "بل سـأخْفِى الجُـزْءَ الأكبرَ منها، وأتَظاهَرُ أن الباقِى هُوَ كلُّ ما وَرِثْتُهُ."

ثم تَمهَّلَ قبلَ أن يُكمِلَ: "سأنفِقُ هذا الباقِى على أصحَابى لأكْتَشِفَ مَا يُخفُونَ نَحْوِى داخِلَ صُدورهم !"

وتَحمَّسَـتِ الأمُّ لِقَرار ابنِها، فقد كانَتْ تَخْشَـى أن يُبعثِرَ أبو الحَسَنِ ثَرْوَتَهُ الجَديدةَ قبلَ أن يُدرِكَ قيمةَ الحِرْصِ عليهَا.



وَهَكَذا انتشـرَتْ فى بغدادَ كُلِّها حِكاياتٌ كالأساطيرِ عن الحَفلاتِ التى يُقيمُها الشَّابُّ الغنِىُّ أبو الحَسَنِ لأصْحَابهِ..

كانَ مَنْزِلُهُ يَسْتَقبلُ ضُيوفَهُ بَعْدَ الغُروبِ فلا يَنْصَرِفونَ قَبْلَ انْتِصافِ اللَّيْلِ.. شَبابٌ مِنْ أبْناءِ التُّجَّار، يَجْتَمِعونَ كُلَّ لَيْلَةٍ حَوْلَ طَعامٍ شَهِىٍّ فاخِرٍ، ومُوسيقَى رائِعَةٍ، وأغـانٍ تَشْدُو بها أعْذَبُ الأصْـواتِ، مَعَ تَبادُلِ الحِكايـاتِ والهَمْسِ بالأخْبار والأسْرَار.

أَوْ يَدْعُوهم أبـو الحَسَـنِ إلـى رحلاتِ صَيْدٍ يَتَسابقُونَ فيها عَلَـى قَنْصِ غِزْلانِ الصَّحْراءِ وطُيورِها، ثم يَعُودونَ بصَيْدِهِم الوَفير يتأمَّلُهُ أهْلُ بَغْدادَ ويتَعجَّبُونَ.

ولم يُقلِّلْ من سَعادَتِهم شَـيْءٌ إلا جَارٌ اسـمُهُ "السيد فاضل" يَضيقُ بمَرَحِ الشَّبابِ، لاتَروقُ له المُوسيقَى والضَّحِكاتُ، فَيَشْكو "أبوالحسن" ورفاقَهُ إلى القاضِي مَرَّةً ومَرَّاتٍ.





ذَاتَ مَساءٍ، صاحَ شَابٌّ مِنهم بعدَ أن انصَرَفَتِ المُغنّيةُ التى أغْدَقوا عليهَا الهَدايا والثَّناءَ: "هل سَمِعْتُم آخرَ الأنْباءِ؟!"

فتَوقَّفَ بَقِيَّةُ الشَّبابِ عَنْ صَخَبِهم لَحظاتٍ..

قالَ ناقِلُ الأنْباءِ: "وافقَ تاجرُ الماسِ إبراهيم البغدادى عَلَى خِطْبَةِ ابنتِهِ لصديقِهِ تاجرِ الذَّهَبِ منصور الموصلى.."

ولم يتنبَّهْ أحدٌ إلى التغيُّرِ الذى طَرَأَ على صاحِبِ البَيْتِ "أبو الحسن" عندما استوعَبَ النّبأ... كانَ يأكُلُ لُقمةَ، فكادَتْ تتوقَّفُ فى حَلْقِهِ..

هتَفَ شابٌّ آخرُ مُستنكِرًا فى مَرَحٍ: "يُزوِّجُ ابنتَهُ لِرَجُلٍ فى عُمْرِ والدِها؟! إنَّه يَبيعُها!!" وتَضاحَكَ الشَّبابُ..

قالَ حامِلُ الأنباءِ: "سيدفَعُ الموصلى مَهْرًا قَدرُهُ مِائةُ ألْفِ دينار!" صَاحُوا مُستنكِرِينَ ضَخامَةَ المَبْلَغِ، لَكِنَّ بعضَهم تَنبَّهَ إلى الشُّحوبِ الذِى اعترَى وَجْهَ "أبو الحسن"..

قالَ واحِدٌ مِنهم: "يَبْدو أنَّ مُضيفَنا لايقدرُ اللَّيْلَةَ عَلَى السَّهرِ!"

هَمسَ أبو الحسن فى مُحاوَلَةٍ لِلسَّيْطَرةِ على مشاعِرِهِ: "سأسْتريحُ قليلاً ثم أعودُ".

٤

وَفى غُرفَةٍ داخلِيَّةٍ أسرعَتِ الأمُّ تَسْتَطلعُ ما حَلَّ بابنِها.. سألَتْهُ فى لهفةٍ: "لم يحدُثْ أنْ تركْتَ أصحابَكَ هكذا مِنْ قَبْلُ ! ماذا أصابَكَ على غيْرِ انْتِظار؟!"

أجابَ بغَيْظٍ : "إصابةٌ فى القَلْبِ !"

صاحَتْ فى جَزَعٍ: ".. نَنقِلُكَ فَوْرًا إلى طَبيبٍ.."

تَأَوَّهَ أبو الحسن: "مَرَضى لا طَبيبَ له!.."

انفَجرَتْ دُموعُها: "لِكُلِّ داءٍ دَواءٌ.."

وبصَوْتٍ جَريحٍ سمعَتْهُ يَقولُ: "منصور الموصلى اشترَى نَجْمَةَ الصَّباحِ!!"

فوجئَتْ والدتُهُ وتوقَّفَتْ دموعُها: "تَصَوَّرْتُ أنَّكَ نَسيتَها!"

تَنهَّدَ أبو الحسن مُتجاهِلاً عِبارَةَ والدتِهِ: "ولُعْبَتى مَعَ الأصْدِقاءِ انتهَتْ.. لن أوجِّهَ الدَّعْوَةَ لِحفلاتٍ أخرى.. سأُعْلِنُ أنَّ ثرْوَتى قد نفدَتْ.."

لم تَعُدِ الأضواءُ تَسْطَعُ مِنْ نوافِذِ بَيْتِ "أبو الحسن"، فَلاَ مُوسيقَى ولا غِناءَ ولا مَواكِبَ فُرْسانٍ يَخْرُجونَ لِلصَّيْدِ.

وخَيَّمَ الصَّمْتُ على البَيْتِ الكَبيرِ..

ومَضَى يَوْمٌ وأيَّامٌ، وأسْبوعٌ وأسابيعُ، وأبوالحسن يُلازِمُ دارَهُ ينتظرُ دَعْوَةً مِنْ صَديقٍ، فلا تَجيءُ له أيةُ دَعواتٍ..

قالَتْ والدتُهُ: "لماذَا لاتَخْرُجُ لِلنزهةِ أوْلزيارةِ أحَدِ الأصْدِقاءِ؟"

أجابَ ساخِطًا: "لن أسْتَمْتعَ وَحْدى بالنُّزْهَةِ ولم يَعُدْ لِى أصْدِقاءُ!.."

قالَتْ مُستنكِرَةً: "وأينَ الذينَ لم يتغيَّبوا يومًا عن مائدتِكَ؟!"

أجـابَ فـى اكْتِئـابٍ: "تَخلَّى عَنّى الجَميـعُ.. لم يُكلِّفْ أحدُهم نفسَـهُ عَناءَ دَعْوَتى إلى حَفْلٍ أو رِحْلةِ صَيْدٍ!"

قالَتْ فِى أسفٍ: "اجْتَمَعُوا حَوْلَ مالِكَ وليسَ حولَ شَخْصِكَ!"

صاحَ أبو الحسنِ: "كَمْ يُؤلِمُنى الجُحودُ!"

قالَتْ والدتُهُ: "مِنَ المُؤلِمِ حقًّا أن تكتشفَ عَدَمَ وُجودِ صَديقٍ مُخلِصٍ واحِدٍ!"

صاحَ أبو الحسنِ فى مُحاوَلةٍ لِيُخفِّفَ عن نفسِهِ الإحساسَ بالسُّخْطِ:

"سأعلِّمُ الجميعَ كيف يَكونُ ألمُ الجُحودِ ونُكْرانِ الجَميلِ..."

هتفَتْ أمُّهُ فى جَزَعٍ: "مَنْ أنْتَ حَتَّى تُلقِىَ دروسَكَ عَلى الناسِ؟!"

قالَ: "سأَسْتَخْدِمُ الجُزْءَ الأكْبرَ الذى مازلْتُ أحْتَفِظُ به مِنْ ثرْوَتـى.. فـى كلِّ مَسـاءٍ أقـومُ بدَعْـوَةِ واحدٍ مـن الأثرياءِ إلـى حَفْلٍ فى بيتى، ثُمَّ أنكِرُ معرفتَهُ وأقْطَـعُ صِلَتـى به منـذُ اللَّحْظَةِ التى يُغادِرُ فيها بابَ بَيْتِى! سـأفعَلُ بهم مثلَ مافَعَلوا بى!" وأدركَتْ والدتُهُ مِقْدارَ ما يُعانِى ابنُها من ألَمٍ، فكتمَتْ مَخاوفَها من نتائج ما يَنْوِى الإقْدامَ عليه!



٥

وعندَ الجسْرِ الكَبيرِ القائِمِ فَوْقَ نَهْرِ دِجْلَةَ، والذى يعبرُهُ كُلُّ قادِمٍ إلى بغدادَ من التُّجَّار، اعْتادَ أبو الحسن أن يرتدِىَ أفْخَرَ ملابسِهِ ويقِفَ بعدَ الغُروبِ.

وعندما يُشاهِدُ شخصًا تبدو عليه مظاهرُ النِّعْمَةِ والثَّراءِ، يَتَقدَّمُ إليه فى تَرْحيبٍ، ويدعوه فى بَشاشَةٍ إلى تَناوُلِ العَشاءِ معَهُ فى بَيْتِهِ.

وكانَ هُناكَ مَنْ يَقْبَلونَ الدَّعْوَةَ فى تَرْحيبٍ وسَعادَةٍ، وهُناكَ مَنْ يَترَدَّدُونَ فيَقولُ لهم أبو الحسن:

"لَيْسَ فى بَيْتِى مَنْ يُؤنِسُ وحْدَتى، والطَّعامُ لا يَطيبُ إلاّ وهُناكَ مَنْ يتقاسَمُهُ معى.. كما أحِبُّ الموسيقى والغِناءَ ولا يحلو الاسْتِماعُ إلا إذا شارَكَنى فيه مَنْ يَتذوَّقونَ الفَنَّ ويَفْهَمُونَه!"

وبعدَ أن يقضِىَ أبو الحسن وضَيْفُهُ أجْمَلَ الساعاتِ، يبذلُ خلالَها أبوالحسن كُلَّ جَهْدِهِ لإظْهارِ مَشاعِرِ الودِّ والتَّكْريمِ لِضَيْفِهِ، يُفاجِئُ الضَّيْفَ وهُوَ يُودِّعُهُ قائلاً له فى صَوْتٍ جافٍّ خَشِنٍ:

"مُنْذُ الآنَ أنا لا أعْرِفُكَ، ولا أريدُكَ أن تَعْرِفَنى!"

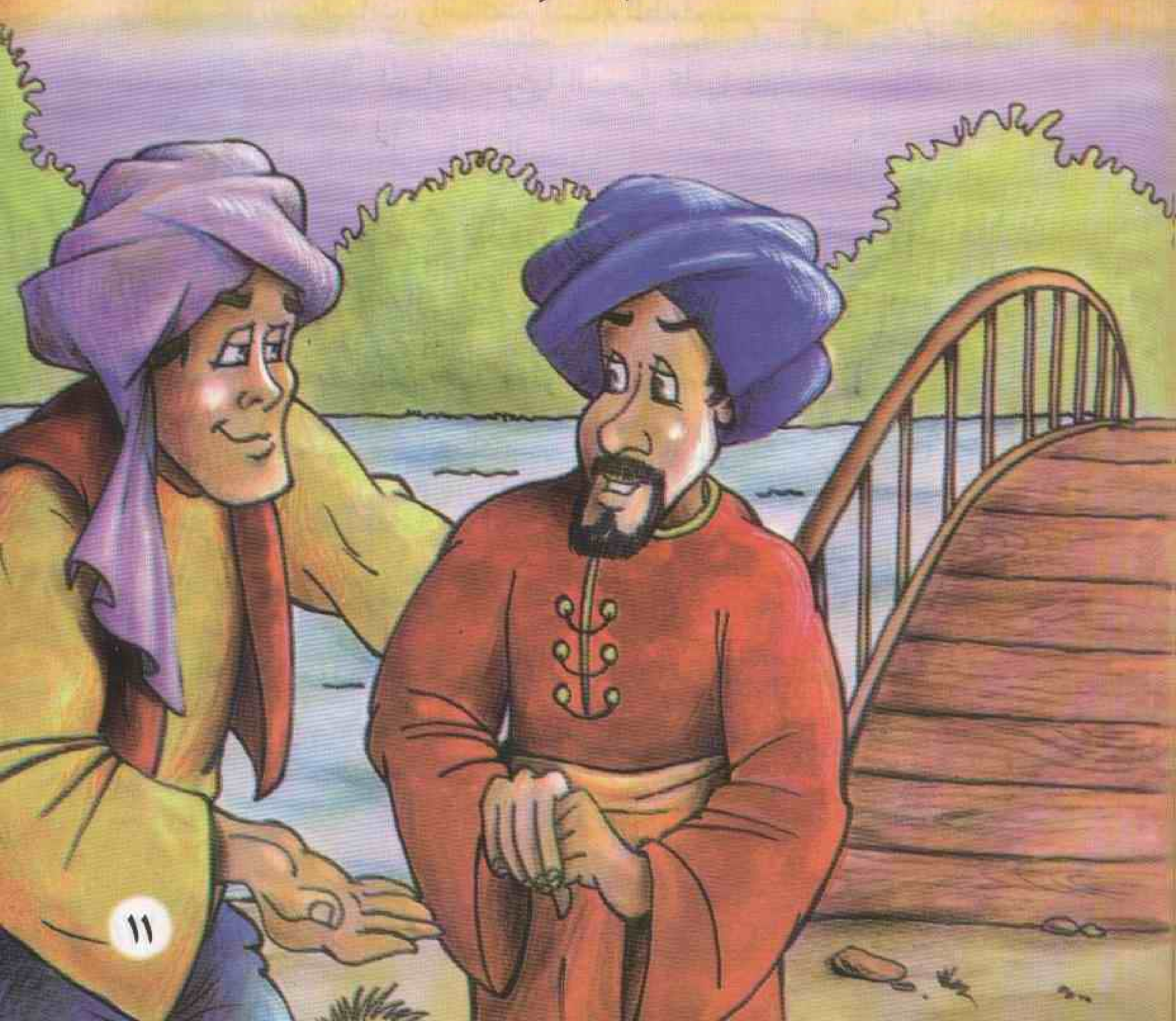
فيَنْصَرِفُ الضَّيْفُ مُتألِّمًا لِهَذا الانقِلابِ العَنيفِ فى مَشاعِرِ مُضيفِهِ، وهو يُحِسُّ بقَسْوَةِ القَطيعَةِ بَعْدَ حَرارَةِ التَّرْحيبِ ودِفْءِ الاسْتِقبال!

وواظَبَ أبو الحسن عَلَى سُلوكِهِ الغَريبِ هَذا مُدَّةَ شَهْرٍ كامِلٍ، مُتصوِّرًا أنَّ ما يفعَلُهُ سيجعلُهُ يَنْسَى ما سبقَ أن أحَسَّ هو به مِنْ جُحودِ أصدقائِهِ.

٦

وكانَ السُّـلْطانُ قد اعْتادَ أن يتَخَفَّى ليتعرَّفَ على أحْوالِ شَعْبهِ. وكَعادتِهِ تَخَفَّى ذاتَ مَسـاءٍ فى مَلابسِ التُّجّار، وانْطَلقَ يَعْبُرُ الجسْـرَ مَعَ تابعٍ لَهُ وهُمَا عائدانِ إلى بغدادَ بَعْدَ جَوْلَةٍ لهمَا.

وفُوجِئَ السُّـلْطانُ المُتَخفِّى بشَـابٍّ وَسيم يَتقدَّمُ ناحِيَتَهُ ويَقولُ فى تَرْحيبٍ:
"هل يتَفضَّلُ سَيِّدى فَيُشرِّفَنى اليَوْمَ بتَناوُلِ العَشاءِ معى؟"



ولم يكُنْ فى مَظْهَرِ الشَّـابِّ ما يحمِلُ على الشَّـكِّ فى أمرِهِ، والسُّـلطانُ المُتخفِّـى شَـغوفٌ بمِثْـلِ هـذه المُغامَـراتِ الغامِضَـةِ، فلم يَتـردَّدْ فى قبولِ الدَّعْوَةِ.

وبينمـا وقـفَ التابـعُ عنـدَ مَدْخَلِ البَيْـتِ كالحـارسِ للاطْمئِنـانِ على سَـلامَةِ سـيِّدِهِ، قضَى السُّـلْطانُ المُتخفِّى فى ملابسِ التُّجَّار أمسيةً رائعَةً مَعَ "أبوالحسن"، تَناوَلَ خِلالَها السَّمَكَ المَشْوِىَّ الذِى تَمَّ صَيْدُهُ أمامَهُ من مِياهِ نهـرِ دِجْلَةَ، وامْتَدَحَ مَـذاقَ لَحْم خَروفٍ صَغيرٍ، وتَـذوَّقَ أحْلَى أنْواعِ الحَلْوَى والفاكِهَـةِ والمُرَطِّبـاتِ، واسْـتَمْتعَ أثنـاءَ الطَّعام بموسـيقَى عـازفٍ مَوْهوبٍ صاحبَتْهُ مُغنيَةٌ شابَّةٌ انسابَ صَوْتُها الشَّجِىُّ كأنَّها تُغرِّدُ..

قالَ السُّلْطانُ المُتخفِّى لأبى الحسن:

"أنتَ شـابٌّ كريمٌ تَتمتَّعُ بذَوْقٍ رَفيعٍ و تُحِبُّ صُحْبَةَ النَّاسِ، وَقَدْ أهدَيْـتَ لـى لَيْلَـةَ مِـنْ أجْمَلِ لَيالى عُمْرِى.. لابُدَّ أن أعْرِفَ الأسْبابَ الحقيقِيَّةَ التى حملَتْكَ عَلَى دَعْوَتى إلى بَيْتِكَ بغَيْرِ أنْ تعرفَ حَتَّى اسْمِى".

قـالَ أبـو الحسـن ضاحِـكًا: "بَـلْ أنَـا الَّـذى أشـكرُكَ أيُّهـا التاجـرُ المُتفائِلُ، لأن صُحْبَتَكَ ملأتْ لَيْلَتِى بالبَهْجَةِ، وجعلَتْنى أسْـتَمتعُ اسْـتِمتاعًا حَقيقِيًّا بالطَّعام والمُوسيقَى".

قالَ الضَّيْفُ: "بل لابُدَّ أن أردَّ لَكَ بَعْضَ هَذا الكَرَم الذى أغَرقْتَنى به".

احتجَّ أبـو الحسـن: "لَكِنَّنـى حَريـصٌ ألاَّ يتكلَّـفَ ضَيْفِـى بأىِّ شَـئٍ نَحْوِى!"

قـالَ الضَّيـفُ: " إذن كُنْ عَلَى ثِقَةٍ أننى لن أغادِرَ بَيْتَكَ هَذا قبْلَ أن أعرفَ حقيقةَ قِصَّتِكَ!.. سُلوكُكَ يدُلُّ أنكَ تُخفِى سرًا، وأنا حَريصٌ على دَعْوَتِكَ إلى مائدتى كما دَعَوْتَنى".

وحاوَلَ أبو الحسـن أن يَتهرَّبَ من الإجابَةِ عَنْ أسْئِلَةِ ضَيْفِهِ ودَعْوَتِهِ، لكنْ كانَتْ هَذِهِ أوَّلَ مَرَّةٍ يَجدُ فيها أحَدَ ضُيوفِهِ الغُرباءِ يُصِرُّ هَذَا الإصْرارَ على رَدِّ التَّحِيَّةِ له بأحْسَنَ منها!

هَمَسَ أبـو الحسـن لنفسِـهِ: "هَـذا هُـوَ الخَيْرُ المُتأصِّـلُ فـى الإنسـانِ الـذى طَالما حَدَّثتْنـى عَنْهُ وَالدَتِـى". وفى النِّهايَـةِ وجَدَ نفسَـهُ يَحْكِى حِكايتَهُ كُلَّها لِضَيْفِهِ.

هَمَسَ السُّلْطانُ لنفسِهِ: "لابدَّ أَنْ أعيدَ لِهَذا الفَتى ثِقتَهُ فِى الناسِ". ثم الْتفَتَ إلى "أبو الحسـن" قائلاً: "هل يُمكِنُ أَنْ أسألَكَ عَنْ أهَمِّ شَيْءٍ تَرْجو تَحْقيقَهُ فى حياتِكَ؟"

ولمَّـا كانَ " أبو الحسـن " لا يأخُذُ الأمرَ كُلَّهُ إلا علـى أنه دُعابَةٌ لَطيفَةٌ، فقد تَذكَّرَ تاجرَ الماسِ الذى تراجَعَ عن وَعْدِهِ، وجارَهُ " السيد فاضل " الذى يُريدُ إيذاءَ جيرانِهِ، فَقالَ ضاحِكًا: " إذا أصبحْتُ سُلْطانًا لِيَوْمٍ واحِدٍ، أتَمنَّى أن أعاقِـبَ مَنْ يَتراجَعُونَ عَنْ وُعودِهِمْ، ومَنْ يُريدُونَ فَرْضَ ما يُحِبُّونَ وما يَكْرَهونَ عَلَى الآخَرينَ!"

وكأنَّ هَذا الرَّدَّ الضاحِكَ هُوَ كُلُّ ما كانَ ينْتظِرُهُ السُّلْطانُ المُتخفِّى!!

لقد تَحيَّنَ لَحْظَةً غابَ فِيهَا أبو الحسن داخِلَ الدَّار، فأخْرَجَ مَسحوقًا مُنوِّمًا يحتفِظُ بِهِ دائمًا بَيْنَ ثِيابِهِ، ووَضَعَ مِنْهُ قَدْرًا فِى كأسِ العَصيرِ الَّذى يَشْرَبُ منه أبو الحسن.

ولم تَمْضِ دَقائِقُ حَتَّى كانَ أبو الحسن قد اسْتَغْرَقَ فى نوْم عَميق..

وأسْـرَعَ السُّلْطانُ يَسْتَدْعِى تابعَهُ، وأمَرَهُ بتَدْبيرِ وَسيلَةٍ لِنقْلِ "أبوالحسن" إلى القَصْرِ السُّلْطانِىِّ، وأوْصاهُ أن يتمَّ هَذا فى هُدوءٍ وبغَيْرِ ضَجَّةٍ.



أصابَـتِ الدَّهْشَـةُ الشَّـديدةُ الحُـرَّاسَ الذين يَقِفـونَ عِنْدَ مَدْخَـلِ القَصْرِ السُّلطانِىِّ، وهُمْ يُشاهِدُونَ سُلْطانهم يَعودُ بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ وخَلْفَهُ أرْبَعَةُ رجالٍ يَحْمِلونَ محفَّةً يَخْتَفى ما فَوْقَها تَحْتَ غِطاءٍ سَميكٍ.

وكانَتْ دَهشةُ حَمَلَةِ المحفَّةِ أشَدَّ عِنْدَما لم تَصْدُرْ إليهم الأوامرُ بالذَّهابِ بها إلى زنْزاناتِ السِّجْنِ تَحْتَ الأرْضِ أسْفَلَ مَبانى القَصْرِ، ولا إلى الجَناح الفاخِرِ المُخَصَّصِ لاسْتِضافةِ كِبارِ الزَّائرينَ، بل وَجَدُوا سُلْطانَهم يَقودُهم مُباشَرَةً إلى القاعَةِ المُخصَّصَةِ لِنوْمِهِ!!

وطلَبَ السُّلْطانُ وَضْعَ المحَفَّةِ بجوارِ فِراشِهِ، ثم أمَرَهُم بالانْصِرافِ!

وكمـا يحدُثُ فى اللَّيالى التى يَعودُ خِلالَها سَيِّدُ البلادِ وقد تَأخَّرَ الوَقْتُ، أضيئَتْ كُلُّ أنوار القَصْرِ بعدَ أنِ اسْـتَيْقَظَ جميعُ مَنْ فيه، وأسْـرَعَ المُشْرِفونَ

والجَـواري والوَصيفـاتُ يَنْتَظِـرونَ خارجَ قاعَةِ نوْمِ السُّـلْطانِ فـى انْتِظار أوامِرِه.

وَبَدَلاً مِنْ أن يستدعِى السُّلْطانُ بعضَ العاملين فى القصرِ ليأمرهم بإخطار السُّلْطانةِ بعَوْدَتِهِ، أو بإعْدادِ العَشاءِ، أو اسْتِدْعاءَ الوَزيرِ لإحاطَتِهِ بأمْرٍ يَجبُ سُـرْعَةُ تَنْفيـذِهِ.. بدلاً مِنْ كُلِّ هذا الذى تَعـوَّدَ أهْلُ القَصْرِ على تَنْفيذِهِ، صَفَّقَ السُّلْطانُ بيدَيْهِ آمِرًا:

"عَلَى كُلِّ العامِلينَ والتَّابعينَ، ابْتِداءً من المُشـرفِ عَلَى شُـئونِ القَصْرِ إلى أصْغَرِ الوَصيفاتِ، أن يَجْتَمِعوا الآنَ هُنا بغَيْرِ إبْطاءٍ!"

كانَ الأمْرُ غريبًا، لَكِنَّ أهلَ القَصْر اعْتادوا عَلَى تَلَقِّى مِثْلِ هَذِهِ الأوامِرِ غَيْرِ المُتوقَّعَةِ مِنْ سُـلْطانِهم الباحِثِ عَنِ الجَديدِ، الشَّـغوفِ بمُراقَبَةِ النَّاسِ عندما يُواجهونَ مَواقفَ لَمْ يَعْتادوا عليها.

وعِنْدَما امتلأتِ القاعَةُ، أشـارَ السُّـلْطانُ إلى المُشْـرفِ عَلَى شُئونِ القَصْرِ، فَتَقدَّمَ ناحِيَةَ المحَفَّةِ، ورفَعَ الغِطاءَ عنها..

وازدادَتْ دَهْشَةُ المُجتمِعينَ عندما تركَّزَتْ أبْصارُهم على الشَّابِّ المُستغرقِ فى النَّوْم فَوْقَها.

أمَـرَ السُّـلْطانُ: "ارْفَعوهُ.. ضَعوهُ فَوْقَ فِراشـى!" وتَقَـدَّمَ أربعَةٌ من الحُـرَّاسِ يَسْألونَ أنفُسَهم: "هل سَمِعوا الأمرَ جيِّدًا، أم خانَتْهم أسْمَاعُهم؟!"

فَوَقفوا حَوْلَ المحَفَّةِ لا يَجْرُءونَ عَلَى تَنْفيذِ الأمْرِ!..

صاحَ فيهم السُّلْطانُ: "قُلْتُ ضَعوهُ فى فِراشى!.."

وتَابعَتْ أنْظارُ الرِّجالِ والنّساءِ ما يَقوُم به الحُرَّاسُ الأرْبَعَةُ وهم يَرْفَعون الشَّابَّ النائِمَ ويَضَعونَهُ فَوْقَ الفِراشِ الوَثيرِ الذِى لَمْ يَجْرُؤْ إنْسانٌ غَيْرُ السُّلْطانِ عَلَى النَّوْم فوْقَهُ.

ثم الْتفَتَ السُّلْطانُ إلى مَنْ بَلَغَ بهم حُبُّ الاسْتِطْلاعِ آخِرَ المَدَى، وقالَ: "هَذا الشَّابُّ هُوَ سُلطانُكم مُنْذُ هَذِهِ السَّاعَةِ ولِمُدَّةِ يَوْم كامِلٍ.. عامِلوهُ كَما لَوْ أنَّهُ أنا.. نَفِّذوا أوامِرَهُ وما يطلبُهُ منكم كأنَّهُ عاشَ هُنا دائِمًا وسَيَظَلُّ يَعيشُ هُنا عَلى الدَّوام.. تَلَقوا طَلَبَاتِهِ ونَفِّذُوها على أنه السُّلطانُ، وعَلَى أنه سَيَظَلُّ سَيِّدَ البلادِ!"

وعادَ السُّلْطانُ يَتلفَّتُ يَمينًا ويَسارًا ويَسألُ: "هل استَوْعَبْتُم الأمْرَ؟! لا أُريدُ أن يَشُكَّ هَذا الشَّابُّ فى حَقيقَةِ ما تُعامِلونَهُ بهِ!"

وابْتهَجَ البعضُ بهَذِهِ اللُّعْبَةِ الجَديدَةِ المَرِحَةِ خاصَّةً الوَصيفاتِ الشَّابَّاتِ وهُنَّ يَتطلَّعْنَ إلى وَجْهِ "أبو الحسن" الوَسيمِ، بينما هَمسَ آخَرونَ لأنفُسِهم: "الحَمْدُلِلهِ أنَّ مِثْلَ هَذِهِ الدُّعابَةِ لن تَطولَ أكثرَ من يَوْمٍ واحِدٍ!"



أخيرًا أفاقَ أبو الحسن من تَأْثيرِ المُنوِّمِ..

لكنَّه كانَ فى حاجَةٍ إلى مَزيدٍ مِنَ النَّوْمِ، فَظَلَّ حَريصًا عَلى إغْلاقِ عينَيْهِ، فلم يَتنبَّهْ أنَّ الظَّلامَ لا يزالُ مُخيِّمًا.



وراحَ يَتقلَّبُ فى فِراشِــهِ لِيُواصِلَ نَوْمَهُ عِنْدَما سَـيْطَرَ عليه إحْساسٌ غَريبٌ فأعادَ لَمْسَ الفِراشِ تَحْتَهُ والغِطاءِ فَوْقَهُ!

".. هذا ليسَ مَلْمَسَ فِراشى الذى اعتدْتُ عليه!!"

ثم واصَلَ حديثَهُ إلى نفسِهِ فى ذُهولٍ:

"المَلْمَسُ هُنا ناعِمٌ شَديدُ النَعومَةِ، أمَّا فِراشى ففيهِ شَىْءٌ مِنْ خُشونَةٍ!"

وفتحَ عينَيْهِ..

لم يَفْهَمْ أيْنَ هُوَ!

ما هَذِهِ المادَّةُ المُتمَوِّجَةُ البَيْضاءُ التى تُحيطُ به من أرْبَعَةِ جَوانِبَ؟!

وَمَا هَذا الشَّىْءُ اللَّيِّنُ غايَةَ اللّينِ الذى يَغوصُ فيهِ بكُلِّ جِسْمِهِ ؟!

سَألَ نفسَهُ بغَيْرِ وَعْيٍ: "هَلْ أطيرُ فَوْقَ سَحابٍ أَمْ أنامُ فَوْقَ أجْنِحَةِ الهَواءِ؟!"

وتَلفَّتَ حَوْلَهُ وعادَ يقولُ: "أو لَعَلَّنِى مِتُّ وأنَا الآنَ فى طَرِيقِى إلى الجَنَّةِ!"

ورَفَعَ جِسْمَهُ وجلَسَ فَوْقَ الفِراشِ...

وفى الحَالِ أشرقَتْ أنوارٌ باهِرَةٌ..

وانْزاحَتْ عن الجَوانِبِ الأرْبَعِ سَتائِرُ حَريرِيَّةٌ بَيْضاءُ!..

وفوجِئَ بأرْبَعِ فَتَياتٍ حَسْناواتٍ واقِفاتٍ حَوْلَ فِراشِهِ!

ووَصَلَ إليه صَوْتُهُنَّ العَذْبُ مِنْ شِفاهٍ وَرْدِيَّةٍ تُزيِّنُ وُجوهًا ضاحِكَةً..

"صَباحُ الخَيْرِ يا سَيِّدى السُّلْطانَ!"



"سَيِّدُكم السُّلْطانُ؟!!.. لا شَكَّ أنَّنى أحلَمُ!!"

ثم عادَ يَهمِسُ لِنَفسِهِ: "هَذا شَىْءٌ لا يُمكِنُ أن يَكُونَ حَقيقيًّا!"

وأغْمَضَ عينَيْهِ وارْتَمى فَوْقَ الفِراشِ وهُوَ يَهْذِى: "هَذا الحُلْمُ العَجيبُ يَجبُ أن أَسْتَمْتِعَ به أَطْوَلَ مُدَّةٍ مُمكِنَةٍ.."

لَكِنَّ الوَصيفاتِ لم يَتْرُكْنَهُ لأحْلامِهِ..

كانَ السُّلطانُ يُراقِبُهُ مِنْ خَلفِ السِّتار، وقد أشارَ بيَدَيْهِ إليهِنَّ ألاَّ يَسْمَحْنَ له بالنَّوْمِ أكثرَ مِمَّا نامَ!

تَقَدَّمَتْ نَحْوَهُ الواقِفَةُ عَنْ يَسارِهِ تَحْمِلُ بَيْنَ يَدَيْها إبْريقًا مِنَ الذَّهَبِ الخالِصِ وقالَتْ: "أعَدَدْنا الماءَ الدَّافِئَ الذى اعْتَدْتَ أنْ تَسْتَخدِمَهُ للاغْتِسالِ يا مَوْلاى السُّلْطانَ!" وتَقَدَّمَتِ الواقِفَةُ إلى يَمينهِ وقد نشَرَتْ بَيْنَ كَفَّيْها مِنْشَفَةً مُطرَّزَةً برُسومٍ مُلوَّنَةٍ لِحَيواناتٍ وطُيورٍ غَريبَةٍ وقالَتْ: "وهَذِهِ مِنْشَفتُكَ التى تُفضِّلُها ياسَيِّدى السُّلْطانَ".

واقتربَتِ الفَتاةُ الأُخرى التى عندَ يَمينهِ ومَعَها خُفٌّ من الجلْدِ الثَّمينِ يُغطِّيهِ فِراءٌ ناعِمٌ وقالَتْ: "وهَذا خُفُّكَ الذى يُريحُ قدمَيْكَ ياعَظَمَةَ السُّلْطانِ".

أمَّا الرابعَةُ التى كانَتْ عِنْدَ رَأسِهِ، فَقَدْ رفعَتْ بيَدِها مشْطًا مُطعَّمًا بالمَاسِ والأحْجارِ الكَريمَةِ وَهِىَ تَقولُ: "وأنا هُنا إذا احْتاجَ شَعْرُ رأسِ السُّلْطانِ إلى عِنايَةٍ".

كانَ أبو الحسنِ يُديرُ رأسَهُ من ناحِيَةٍ لأخْرَى يَتأمَّلُ الفَتَياتِ الجَميلاتِ الرَّشيقاتِ وهُوَ غَيْرُ قادِرٍ عَلَى اسْتيعابِ ما يَرَى، ثمَّ جلَسَ فَجْأةً مُتربِّعًا وسَطَ الفِراشِ وصاحَ بهِنَّ: "أنا أبو الحسن، فمَنْ هُوَ السُّلْطانُ؟!"

وكَأنَّما باتِّفاقٍ، ظهرَتْ عَلاماتُ الدَّهْشَةِ الشَّديدَةِ عَلَى وُجوهِ الفَتَياتِ الأرْبَعِ!..

قالَتِ التى تَحْمِلُ إبْريقَ الذَّهَبِ:

"عَظَمَتُكَ سُلْطانُنا الأكْبَرُ حَفِظَك اللهُ".

والْتَفَتَ أبو الحسن إلى الَّتِى تُمْسِكُ المِنْشَفَةَ يَسألُها فى ذُهولٍ: "وأنْتِ.. ماذا تَقُولينَ عَنِّى؟"

ابْتسَمَت ابْتِسامَةً عَذْبَةً وهِىَ تُجيبُ:

"هَل هَذا فى حاجَةٍ إلى سُؤالٍ يا مَوْلاى؟.. أنتَ السُّلْطانُ طَبعًا!"

هُنا انفَتحَ بابُ القاعَةِ ودخَلَ المُشرفُ عَلَى شُئونِ القَصْرِ.

وراقَبَهُ أبو الحسن وهُوَ يَقْتَرِبُ، وقد أمْسكَ وَرقةً طَويلَةً بَيْنَ يدَيْهِ:

"صَباحُ الخَيْرِ يا مولاى السُّلْطانَ.. هل تَسْمَحُ أن أتلُوَ علَى جَلالَتِكم ماطلَبْتَ أن نُذكِّرَ به عَظَمتَكُم من مَسْئولياتٍ تَنْتَظِرُ فَخامَتَكُم اليَوْمَ؟!"

حَدَّثَ أبو الحسن نَفْسَهُ فى اسْتِنْكار:

"هَلْ هَذِهِ خُدْعَةٌ جَديدَةٌ يَتَلاعَبونَ عَنْ طَريقِهَا بعَقْلِى؟!"

ثم اعْتَدَلَ وقالَ فى صَوْتٍ حاسِمٍ:

"المَسْئوليَّاتُ تَأتِى بَعْدَ أن أفيقَ من النَّوْمِ والأحْلامِ!"

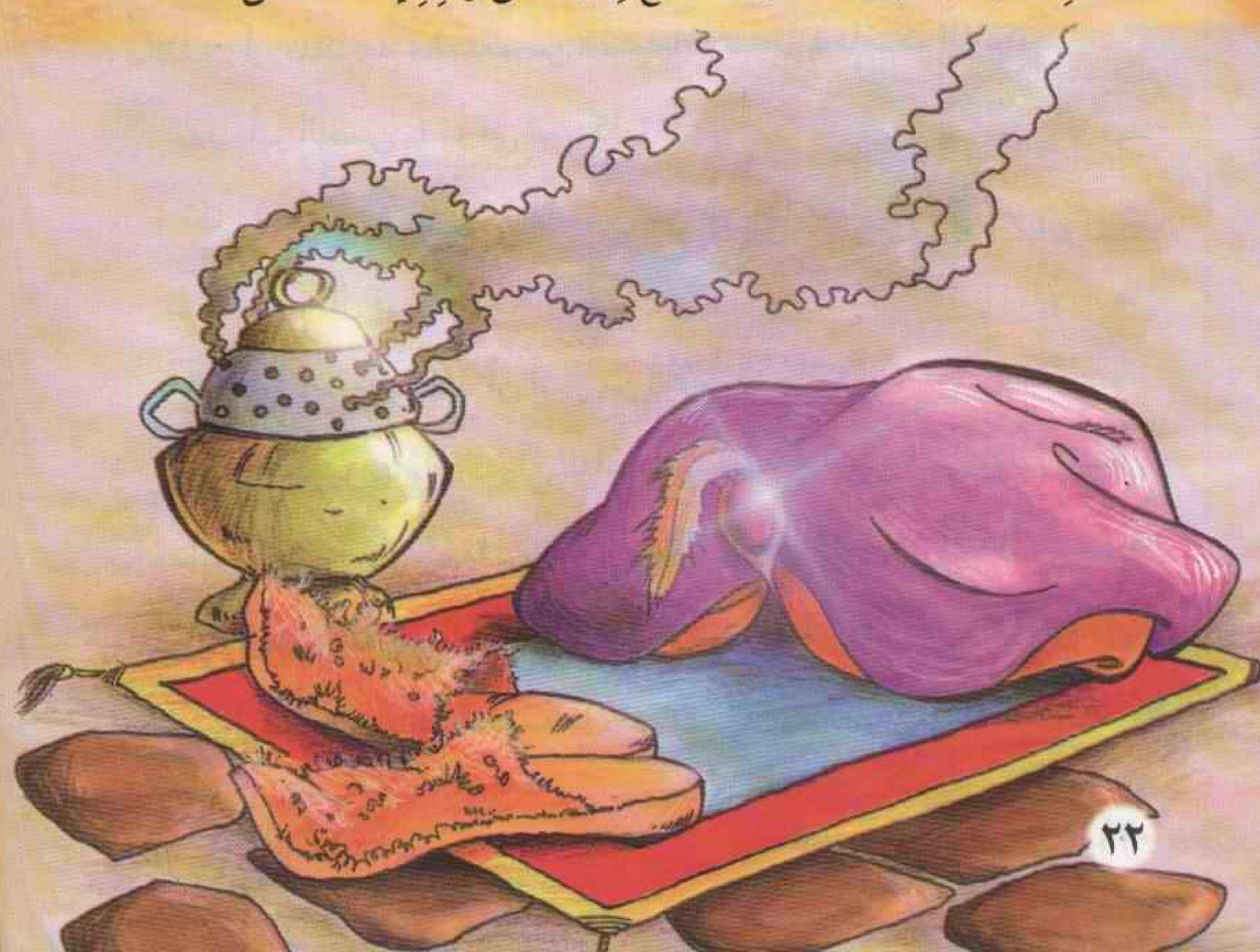
ثُمَّ أدارَ عينَيْهِ يتأمَّلُ جُدرانَ القاعَةِ المُتَّسِعَةِ وما عَلَيْها مِنْ رُسومٍ تُمثِّلُ أسْماكَ البَحْرِ وطُيورَ السَّماءِ، ورفَعَ رأسَهُ إلى سَقْفِها المُزَيَّنِ بأشْكالٍ هَنْدَسِيَّةٍ مُلوَّنةٍ دَقيقَةٍ، وتَنبَّهَ إلى السَّجاجيدِ الثَّمينَةِ التى تُغطِّى الأرْضَ بزَخارِفِها ذاتِ الأشْكالِ الخَياليَّةِ، وحَدَّثَ نفسَهُ قائلاً:

"قد يَكونُ هَذا حُلمًا، وقد يَكونُ عَملاً مِنْ أعمالِ الجِنِّ.. وسَواءٌ كانَ هَذا أو ذاك فلابُدَّ أن أسْتَمْتعَ به كُلَّ الاسْتِمْتاع".

وهَكـذا قَرَّرَ أبو الحسـن أن يتَظاهَرَ بأنه يُصَدِّقُ كُلَّ مـا يَدورُ حَوْلَهُ، وأنْ يَنْدَمِجَ فيه بكُلِّ أحاسيسِهِ ومَشاعِرِهِ !

٩

وبَـدأ بـأنِ اغْتَسَـلَ، ثم تَناوَلَ إفْطارًا سُـلْطانِيًّا لم يَعْرِفْ خلالَهُ ما يأخُذُ وما يتركُ. وعندما طلبَ ثِيابَهُ أحْضَروا له مَلابسَ فَاخِرَةً مَشْغولَةً كُلَّهَا بخُيوطِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، وعِمامَةً كَبيرَةً لا يضعُ مِثْلَها عَلَى رَأسِهِ إلا السُّلطانُ.



ثمَّ توجَّهَ إلى قاعَةِ العَرْشِ فى خُطُواتٍ بَطيئَةٍ تُوحِى بالعَظَمةِ والثِّقَةِ، لِيُقابلَ كِبارَ رجالِ الدَّوْلَةِ، ويُصْدِرَ القَراراتِ الهامَّةَ، ويَفْصِلَ فى الخِلافاتِ الخَطيرةِ!

وأثناءَ اقْتِرابِهِ من "مَقْعَدِ السُّلْطانِ" [أو كُرسِىِّ العَرْشِ] لاحَظَ بطَرْفِ عينِهِ، عَنْ يَمينِهِ ويَسارِهِ، صَفَّيْنِ مِنْ رجالٍ لَهُمْ لِحَى طَويلَةٌ بَيْضاءُ، يُمْسِكون أوراقًا أو يَحْمِلونَ سُيوفًا، وكُلُّهم قد أحْنَوْا رُؤوسَهم انْحِناءً شَديدًا تَعبيرًا عن الاحْتِرامِ الكَبيرِ.

هَمسَ قائلاً لنفسِهِ: "يبدُو أنَّ الأمْرَ جِدٌّ لا هَزْلَ فِيهِ!"

ولأنه لم يَكُنْ يعرفُ أحدًا مِمَّنْ وَقفوا حَوْلَهُ، فقد أشارَ إلى المُشرِفِ عَلَى شئونِ القَصْرِ ليَقْتَرِبَ منه.

قالَ له بصَوْتٍ مُنخفِضٍ: "أريدُ الوَزيرَ الأكبرَ على انفِرادٍ".

واعْتَدَلَ المُشْرِفُ بعدَ أنْ كانَ مُنْحَنِيًا، وَقالَ فى صَوْتٍ واضِحٍ وَهُوَ يُواجهُ مَنْ وَقفوا صامِتينَ مُنْتَظِرينَ:

"مَوْلانا السُّلْطانُ يَدْعو وَزيرَنا الأكْبَرَ إلى اجْتِماعٍ خاصٍّ!"

وكانَتْ تلك إشارَةَ انْسَحَبَ بَعْدَها كُلُّ مَنْ فِى القاعَةِ، عَدَا رجلٍ مَهيبِ الطَّلْعَةِ اسْتَنْتَجَ أبو الحسن أنه الوَزيرُ الأكْبَرُ.

سَأَلَهُ أبو الحسن: "أنتَ وزيرى الأكبرُ.. فمَنْ أكُونُ؟"

وفى ثِقَةٍ أجابَ الوَزيرُ: "أنتَ مَوْلاىَ السُّلْطانُ طَبْعًا!!"

سَأَلَهُ أبو الحسن: "هَلْ تعرفُ يا وَزيرى تاجرَ الماسِ إبراهيم البغدادى؟"

أخْفَى الوَزيرُ دهشَتَهُ مِن هَذا السُّؤالِ المُفاجِئِ وأجابَ:

"وَمَنِ الَّذى لايعرفُ أكبرَ تاجرِ ماسٍ فى بَغْدادَ يا مَوْلاىَ؟!"

قالَ أبو الحسنِ فى صَوْتٍ حاسِمٍ: "صادروا كُلَّ أموالِهِ، وضَعُوهُ فى السِّجْنِ!"

نَظَرَ الوَزيرُ إلى ' أبو الحسن ' فى دَهْشَةٍ وسَكَتَ..

صاحَ به أبو الحسنِ: "ما دُمْتُ أنا السُّلْطانَ، فعَلَى وَزيرى الأكْبَرِ تَنفيذُ أوامِرى!"

قالَ الوَزيرُ فى استِسْلامٍ: "أوامِرُ سُلْطانِنا مُطاعَةٌ يا مَوْلاى!"

قالَ أبو الحسنِ فى تأكيدٍ: "الطَّاعَةُ فى الحالِ وبغَيْرِ إبْطاءٍ!"

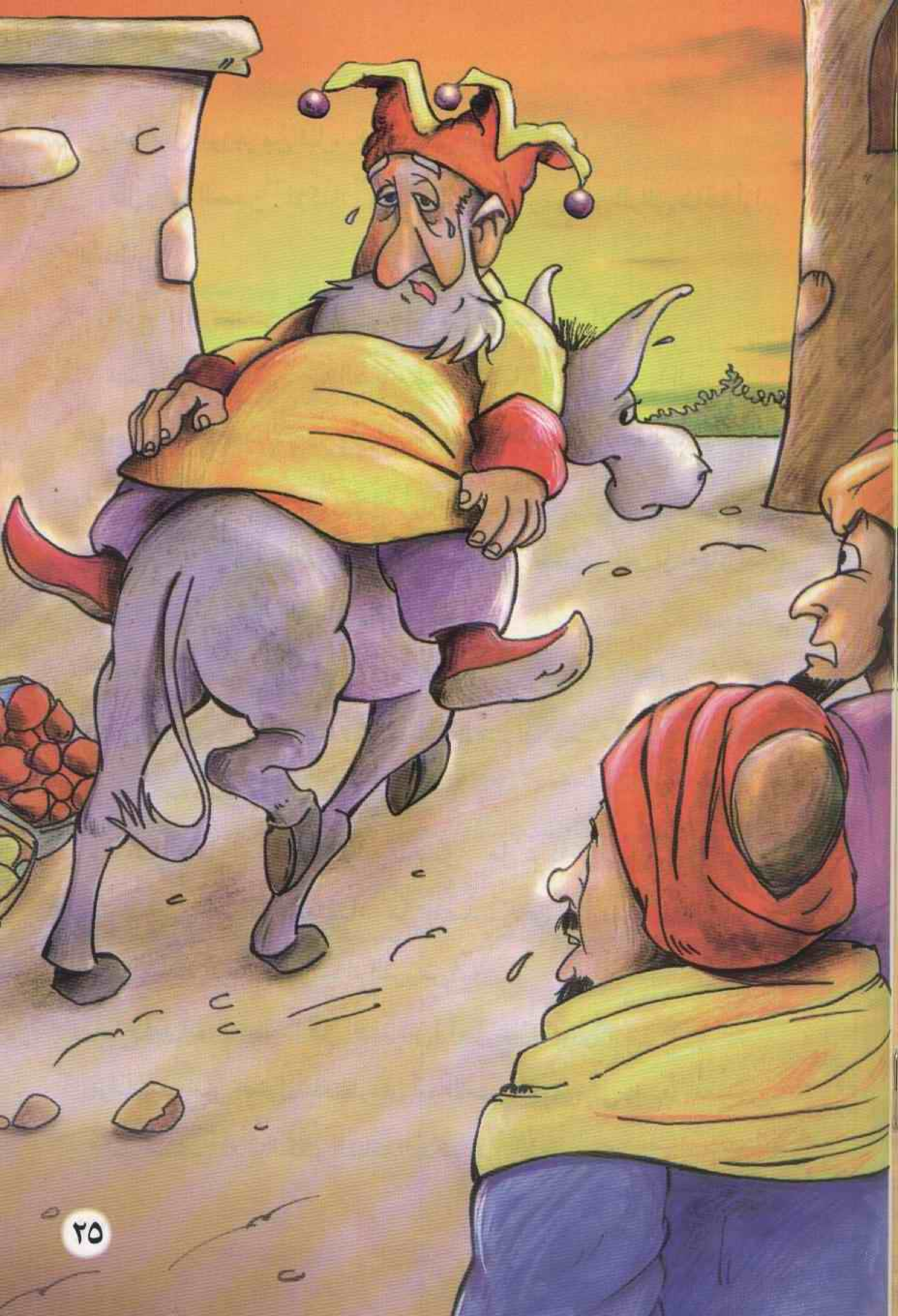
وأحْنى الوَزيرُ رأسَهُ مُؤكِّدًا أنَّهُ فى طَريقِهِ إلى تَحْقيقِ رغبةِ السُّلْطانِ فوْرًا. ثمَّ تَقهقَرَ حَتَّى خَرجَ مِنَ القاعَةِ وهُوَ يُخفِى ارتباكَهُ !

وعادَ أبو الحسنِ يُنادِى المُشرفَ لِيَقولَ لَهُ: "وأحْضِرْ لى والِىَ بغدادَ".

ودَخلَ الوالى وهو يَنْحَنِى مَرَّةً بعدَ أخْرَى حَتَّى أصبحَ إلى جِوارِ "أبوالحسن".

وأمْلَى أبو الحسن عَلَى الوالى عُنوانَ جارِهِ ' السيد فاضل ' الَّذى اعتادَ أن يشكُوَهُ إلى القاضى، ثمَّ أمرَ قائِلاً:

"اقْبضوا علَى هَذا الرَّجُلِ، وأجبروه عَلَى ارْتِداءِ ملابسِ المُهرِّجينَ، وَضَعُوهُ فَوْقَ حِمار علَى أن يكونَ وجهُهُ نَحْوَ الذَّيْلِ، وَطُوفوا به أحْياءَ بَغْدادَ حَيًّا بَعْدَ حَىٍّ وأمامَهُ المُنادِى يصيحُ: هَذا جَزاءُ مَنْ يَفْرِضُ ما يُحِبُّ وما يكرَهُ على الآخَرينَ، ويدُسُّ أنفهُ فى شُئونِ الجيرانِ".



وكَما فَعَلَ الوَزيرُ مِنْ قَبْلُ، وقفَ الوالى كأنه لم يَفْهَمْ !

وقالَ "أبو الحسنِ" مُؤكِّدًا: "هَذِهِ رَغبةُ السُّلْطانِ، وعَلَى الوالى طاعَةُ أوامِرِ السُّلطانِ!"

وخَرَجَ الوالى يتعثّرُ، ودَخَلَ بعدَهُ آخَرونَ الواحدُ بعدَ الآخَرِ..

وقضَى "أبو الحسن" بقِيَّةَ الصَّباحِ يتذكَّرُ أسْماءَ كلِّ مَنْ أساءوا إليه، ويطلبُ عقابَهم واحِدًا بعدَ الآخَرِ بأنْواعٍ مُختلِفَةٍ مِنَ العُقوباتِ، بعضُها فيه غِلْظَةٌ وقَسْوَةٌ، وبعضُها فيه سُخْرِيةٌ وتَشهيرٌ!

وفَجأةً تَذكَّرَ قوْلَ والدتِهِ إن "الخَيْرَ أكثرُ مِنَ الشَّرِّ"، فأمَرَ بإحْضار أمينِ خِزانةِ السُّلْطانِ. وجاءَ الرَّجُلُ مُهَرْولاً.

قالَ له أبو الحسنِ بعدَ أن أعْطاهُ عُنوانَ مَنْزِلِ والدتِهِ:

"فى هَذا البَيْتِ ستَجدُ سيِّدةً كبيرةَ السنِّ.. قَدِّمْ لهَا خَمْسَةَ آلافِ دينار ذَهَبِىٍّ، وقُلْ لهَا هَذه هَدِيَّةٌ مِنَ السُّلْطانِ".

وتَوقَّفَ الرَّجُلُ لَحْظَةً، فسَألَهُ أبو الحسن: "هل تَحْتاجُ إلى إيضاحٍ أكثرَ؟"

سألَ أمينُ الخِزانَةِ مُتلعثمًا: "هل يقصِدُ مَوْلاى أن أنفِقَ هَذا المَبْلَغَ مِنْ أمْوالِ الهِبَاتِ، أمِ التَّعْويضَاتِ، أمِ القُروضِ؟"

صاحَ فيه أبو الحسنِ: "هَلِ الهِبَةُ شَىْءٌ آخَرُ غَيْرُ الهَدِيَّةِ؟!"

وانصرَفَ أمينُ الخِزانَةِ مُضْطَرِبًا وأبو الحسنِ يَهْمِسُ إلى نفسِهِ:

"لقد أنسَتْنى مَهامُّ الحُكْمِ الشَّاقَّةُ التَّفْكيرَ فِى الطَّعام".

١٠

عندما دخلَ قاعَةَ الطَّعامِ فوجئَ بالأطْباقِ والأوانِى يَشِعُّ منهَا بَريقٌ أصْفَرُ أخَّاذٌ.. كانَتْ كُلُّها من الذَّهَبِ الخالِصِ!.. هَمَسَ لِنَفْسِهِ:

"هَذِهِ مائِدَةٌ يَسْتحيلُ وجودُها إلا عِنْدَ مَلِكِ الجانِّ نَفْسِهِ!"

وأفاقَ مِنْ تأمُّلِ رَوْعَةِ الأطْباقِ الثَّمينَةِ عِنْدَما بدأوا فِى تَقْديمِ أصْنافِ الطَّعامِ صِنفًا بعدَ آخَرَ. وإذا كانَ أبوالحسنِ قَدِ اعْتادَ أن يَخْتارَ لأصدقائِهِ أفضَلَ أنواعِ الطَّعامِ، فقد وجَدَ مائِدَةَ "ملك الجان" تضُمُّ عَددًا لانهائِيًّا مِنَ الأصْنافِ الشَّهِيَّةِ التى لم يسبقْ أن تَذَوَّقَها أوتَصَوَّرَ يَوْمًا أنهَا يُمكِنُ أنْ تجتمعَ على مائِدَةٍ واحِدَةٍ:

لَحْمُ فَخذِ الغَزالِ المَشْوِىُّ بجوار صَدْرِ الطَّاووسِ المَحْشُوِّ بالمُكَسَّراتِ، قِشْرِيّاتُ البَحْرِ النَّادِرَةُ بجوار بَيْضِ النَّعام الكبير، وفَطائِرُ جَوْزِ الهِنْدِ وعَسَلُ النَّحْلِ مَعَ الفالوذَجِ المُحلَّى بماءِ الوَرْدِ وَعَصيرِ البُرْتُقالِ، وفاكِهَةُ الأنانَاسِ مَعَ الزَّبيبِ، وحَلْوَى بلادِ الهِنْدِ مَعَ حلْوَى الشَّامِ مُزَيَّنَةً بأغْرَبِ الزُّهورِ الحَمْراءِ والصَّفْراءِ والوَرْدِيَّةِ.

والأجْمَلُ مِنَ الطَّعامِ كَانَتِ الفَتَياتِ اللّاتِى يُقَدِّمْنَ الطَّعامَ، يَضَعْنَ نَوْعًا مِنَ الطَّعامِ ويرفَعْنَ آخرَ، تُزَيِّنُ وجوهَهُنَّ ابْتِساماتٌ عَذْبَةٌ تَشِعُّ من العُيونِ والشِّفاهِ، وتَرْتَفِعُ ضَحِكاتُهُنَّ الخافِتَةُ كأنها نَغَماتُ أجْراسٍ فِضِّيَّةٍ كُلَّما داعبَ



إِحْداهُـنَّ بكَلِمَةِ إعْجـابٍ أو طَلبَ مَزيدًا من أحَدِ أنْواعِ الطَّعامِ. لَقَدْ عرفَ أنَّ أجْمَلَهُنَّ اسْمُها " زَهْرُ الياسَمينِ "، فَسألَها مُبْتَسِمًا:

"يا زَهْرَ اليَاسَمينِ.. أيْنَ نَحْنُ الآنَ؟!"

وبغَيْرِ تَرَدُّدٍ أجابَتْهُ فى بَراءةٍ: "نَحْنُ فى قَصْرِكَ طَبْعًا يا مَوْلاى السُّلطانَ!"

عادَ يَسْألُها ضاحِكًا: "وأنتِ.. هَلْ أنتِ مِنَ البَشَرِ أم جِنّيَّةٌ من بَناتِ ملكِ الجانِّ؟!"

فتَضاحَكَتْ زَهْرُ اليَاسَـمِينِ وشـارَكَتْها زَميلاتُها الضَّحِكَ، وقـد وَجَدْنَ فِى تلكَ الضِّحكاتِ الرَّدَّ الطَّبيعِيَّ على مَا تَصوَّرْنَهُ فُكاهَةً يُبْدِى بها السُّلْطانُ إعجابَهُ بهِنَّ!

أمَّا أبو الحَسَـنِ فَقَدِ انْتَهَى رأيُهُ إلى أنَّ كُلَّ مَنْ قابَلَهم أو حدَّثهُمْ فى ذلك اليَوْمِ، بمَنْ فيهم الوَزيرُ والوالى والمُشْـرفُ على شُـئونِ القَصْرِ، كُلُّهم مِنْ عالَمِ الجانِّ، وأنَّ آخِرَ شَخْصٍ اسْتَضافَهُ فِى مَنْزِلِهِ كانَ " مَلِكَ الجَانِّ " نَفْسَهُ، وأنه يَرُدُّ له الآنَ التَّحِيَّةَ بأفْضَلَ مِنْهَا.

١١

بعدَ أنِ انْتَهَى أبو الحَسَـنِ مِنْ تَناوُلِ أشْـهَى طَعامٍ تَناوَلَهُ فى حَياتِهِ، تَقَدَّمَ نحْوَهُ المُشرفُ عَلَى شُئونِ القَصْرِ قائِلاً:

"أعدَدْنا لعظَمتِكُم حَفلاً فَنيًا مُتَميِّزًا فى فَتْرَةِ المَساءِ، لِلتَّخْفيفِ عَنْكُم بَعْدَ هَـذا الجَهْدِ الكَبيـرِ الَّذى بَذَلْتُموه لإصْـدارِ كُلِّ تِلْكَ الأحْـكامِ فى الصَّباحِ.. نَرْجُو أنْ يَرْضَى مَوْلاى عَمَّنْ وقعَ عَلَيْهم اختيارُنا مِنَ المُوسيقِيِّينَ والمُغَنّياتِ والراقصاتِ".

ذَلِكَ أَنَّ السُّلْطانَ الحَقيقِيَّ، الذِى كانَ يُراقِبُ كُلَّ شَىْءٍ فى شَغَفٍ مِنْ وَراءِ سِتارٍ، رَأى أَنَّهُ يَجِبُ الاكْتِفاءُ بِمَا فعلَهُ أبو الحَسَنِ طَوالَ الصَّباحِ فى مَجْلِسِ الحُكْمِ، مِنْ تَغْليبِ الانْتِقامِ عَلَى العَدالَةِ !

وفى نِهايَةِ السَّهْرَةِ المُمتِعَةِ الباذِخَةِ، وتَنْفيذًا لأمْرِ السُّلْطانِ الحقيقِىِّ، وَضَعوا لأبى الحَسَنِ مُنَوِّمًا فى آخِرِ كأسِ عَصيرٍ تناوَلَهُ، فاسْتَغْرَقَ فى النَّوْمِ .

عِندئذٍ خَلَعوا عنْهُ المَلابسَ السُّلْطانِيَّةَ، وألْبَسُوهُ ملابسَهُ الَّتِى جاءَ بِهَا، وأعادُوهُ فى الخَفاءِ إلى بَيْتِهِ، وتَرَكُوه نائِمًا فَوْقَ فِراشِهِ المُعْتادِ .



لَم يَكُنِ الظَّلامُ قَدِ انْقَشَعَ بَعْدُ عِنْدَما فَتَحَ أبو الحسنِ عينَيْهِ، فلم يَتنبَّهْ إلى أنَّ الستائرَ البَيْضاءَ المُتموِّجَةَ التى كانَتْ تُحيطُ بسَريرِهِ السُّلْطانِىِّ لم يَعُدْ لها أثرٌ!

جَلَسَ فَوْقَ الفِراشِ وقَدْ تَوقَّعَ أن تُشْرِقَ الأنْوارُ الباهِرَةُ، لَكِنَّ الظَّلامَ ظَلَّ مُخَيِّمًا!

صَفَّقَ وهَتَفَ: "أيَّتُها الوَصيفاتُ.. ماءُ الاغْتِسالِ.. الخُفُّ والمشْطُ!.." لَكِنَّهُ لم يَسْمَعْ إلَّا صدَى صَوْتِهِ!

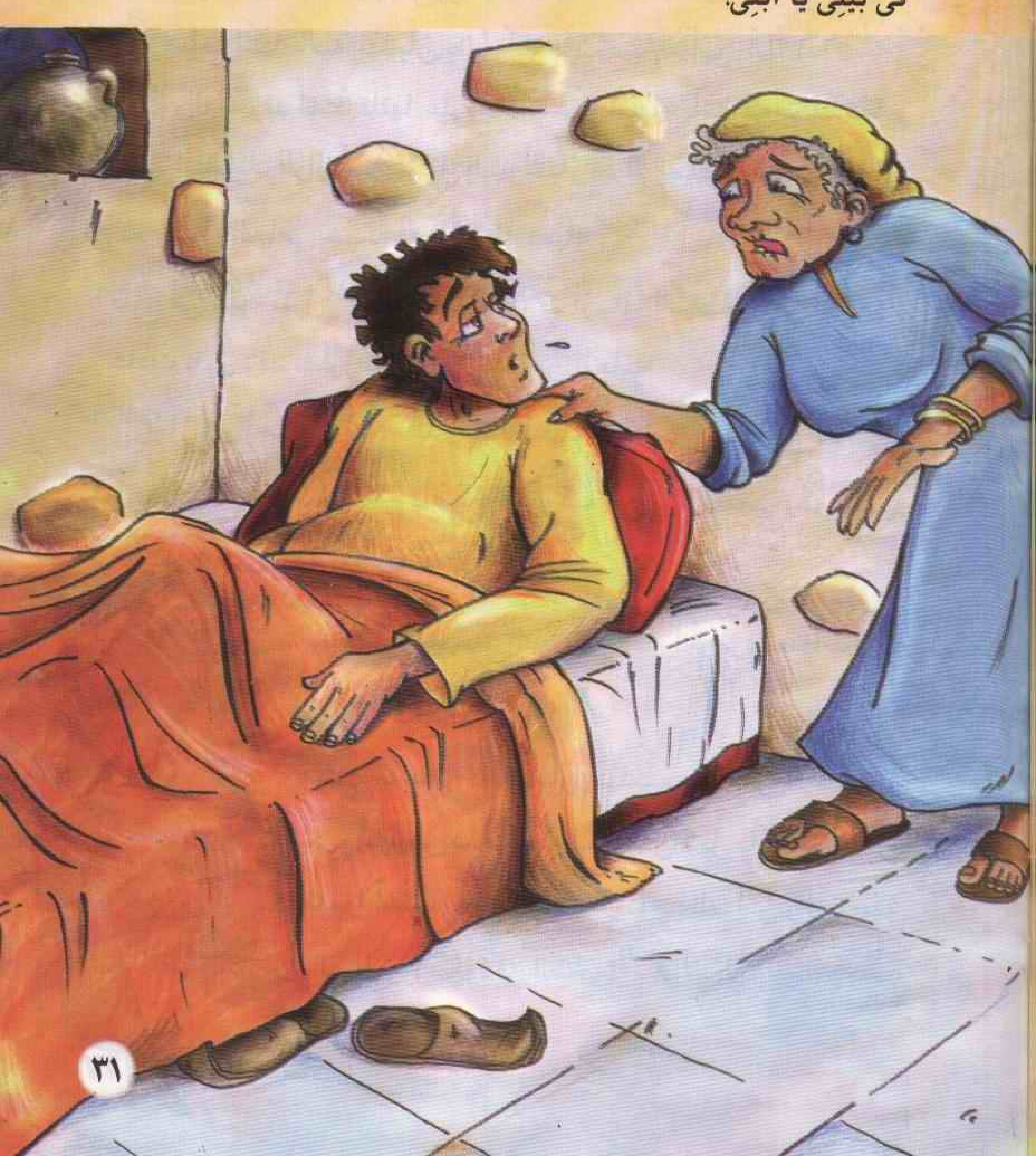
عادَ يصيحُ فى انْفِعالٍ: "يا مُشْرفَ القَصْرِ.. يا زَهْرَ الياسَمينِ..!"

فأطَلَّ عليه وَجْهٌ تَمْلَؤهُ التَّجاعيدُ..

كانَ وَجْهَ والِدَتِهِ مُنْزَعِجَةً حائِرَةً ! !

اسْتَشاطَ غَضَبًا: "ما الَّذى جاءَ بكِ إلى قَصْرى السُّلْطانِىِّ بمَلابسِكِ المَنْزليَّةِ هَذِهِ؟! هَيَّا.. عُودِى فورًا إلى بَيْتِكِ!"

ظَنَّتْهُ فى كابُوسٍ يَهْذِى فقالَتْ فى قَلَقٍ: "اسْتَيْقِظْ يا "أبو الحسن".. إنَّنى فى بَيْتِى يا ابْنِى!"



واصَلَ صِياحَهُ: " أنا لستُ فى بَيْتِك، ولَستُ ابنَك.. أنا فى قَصْرِى وأنا السُّلْطانُ! "

وفى تلك اللَّحْظَةِ فَقَطْ تَنَبَّهَتْ حَواسُّهُ إلى مَلْمَسِ الفِراشِ تَحْتَهُ.. لَيْسَ ناعمًا شَديدَ النُّعومَةِ، ولا لَيِّنًا شَديدَ اللِّينِ!!

وفى صَوْتٍ اخْتَلَطَ فيه الهَذيانُ بالسُّخْطِ عادَ يَصيحُ: "أَيْنَ أنا؟!!"

قالَتْ والدتُهُ وقد اشتدَّ قَلَقُها على سَلامَةِ عَقْلِ ابْنِها: " أنتَ فى بَيْتِكَ وعَلَى فِراشِكَ.. انْتَظَرْتُكَ طَوالَ أمسِ لأنقِلَ إليكَ أخْبارَ إكْرامِ السُّلْطانِ لى.. لقدْ أرْسَلَ لى مع رَسُولِهِ الخاصِّ خَمْسَةَ آلافِ دينار ذهبًا! "

صاحَ فى شِبْهِ جُنونٍ: " تَقولينَ خَمْسةَ آلافٍ أرْسَلَها السُّلْطانُ؟! "

عادَتْ تَقولُ وقد تَصوَّرَتْ أنه بدأ يَفيقُ مِنْ أوْهامِهِ:

" وجارُنا "السيد فاضل" الَّذى طالَما قَدَّمَ الشكاوى ضِدَّكَ إلى القاضى.. جَعلُوه مُهرِّجًا بأمْرِ السُّلْطانِ فأصْبَحَ أضْحُوكَةَ الكَبيرِ والصَّغيرِ وهُوَ يَرْكَبُ حِمارًا بالمَقْلوبِ! "

وتَعالَى صِياحَهُ: "إذَنْ فقد نَفَّذُوا أوامِرى بعِقابِ ذلك الكارِهِ لأفْراحِ الآخَرينَ؟!! "

ربتَتْ أمُّهُ على كَتِفِهِ تُحاولُ تَهْدِئَتَهُ وهِىَ تَقولُ: "تَنَبَّهْ يا وَلَدى.. أقولُ إنَّ هَذِهِ أوامِرُ السُّلْطانِ!.. بَلْ بأمْرِ السُّلْطانِ قاموا أيضًا بمُصادَرَةِ أموالِ تاجرِ الماسِ والِدِ نَجْمَةِ الصَّباحِ ووضَعُوهُ فى السِّجْنِ! "



وانطلَقَ أبـو الحَسَـنِ يَـدورُ فـى الغُـرْفَـةِ كالمَجْنونِ وهو يَهْذِى صائِحًا: "إنَّهَا أوامِرِى.. أنا السُّـلْطانُ.. لَسْتُ أحلُمُ.. أنْتِ تَذْكُرينَ وقائِعَ حدثَتْ فِعْلاً.. أنا لَسْتُ مَجْنونًا!"

وسَـمِعَ الجيرانُ صَوْتَهُ يَتَعالَى وهُوَ يَصْـرُخُ ولا يكُفُّ عن الصُّراخ مُؤكِّدًا: "قلْتُ لَكِ أنا السُّـلْطانُ.. لم تَخْدَعْنى حواسِّـى.. أنا الذى أرسـلْتُ الذَّهَبَ وأمَرْتُ بمُعاقَبَةِ الشَّرِّ والأشْرار!.."

وتَجمَّعَ عَدَدٌ كَبيرٌ مِنَ النَّاسِ تَدافَعُوا وهم يَقْرَعُونَ الباب بشِدَّةٍ وقد مَلأَهم صُراخُ "أبو الحسن" بالفَزَعِ وحُبِّ الاسْتِطلاعِ.

وفتحَـتْ لهم الأمُّ البـابَ والدُّموعُ تَنْهمِرُ من عينَيْها وهِـىَ تَصيحُ: "أنْقِذوا ولدِى.. أصابَتْهُ نَوْبَةُ جُنونٍ.. يهذِى ولا يَدْرى ماذا يَقولُ!"

وفى دهشةٍ شاهَدَ المُتزاحِمونَ "أبو الحسنِ" يَصيحُ بكَلام غَيْرِ مَفْهوم عن ذَهَبٍ ودَنانيرَ وسُـلْطانٍ وعُقوباتٍ وأشْـرار، وتأكَّدوا أنه يُكـرِّرُ بغَيْرِ انْقِطاعِ قَوْلَهُ: "أنا السُّلْطانُ قُلْتُ.. أنا السُّلْطانُ فَعَلْتُ.." فَوَثِقُوا أنه فَقَدَ عقلَهُ. عندئذ تكاثـروا عليه وقَيَّدوا يدَيْهِ، وحمَلوهُ رَغْمًا عنه إلى "بَيْتِ المَجانينِ"، حَيْثُ يَحْجزونَ مَرْضَى الأمْراضِ العقلِيَّةِ.



ولأنـه لم يتوقَّفْ عن صِياحِهِ وتأكيدِ أنه السُّلْطانُ، ولأنه ظَلَّ يُقاومُ بعُنْفٍ كُلَّ مَـنْ يُحاولُ إفهامَهُ أنـه "أبـو الحسن"، فإنَّ المُشرفينَ عَلَى "بَيْتِ المَجانين"



أو "المارستانِ" اضطرُّوا إلى تَقْييدِ قدمَيْهِ ويدَيْهِ بالسَّلاسِلِ الحَديديَّةِ الثَّقيلَةِ لِكَيْ لا يُؤذِى أحَدًا.

ثـم بَـدَءوا عِلاجَهُ بضَرْبِهِ عِـدَّةَ مَرَّاتٍ ضَرْبًا عَنيفًا بالعِصِـىِّ الرَّفيعَةِ عَلَى كُلِّ جزْءٍ من أجْزاءِ بَدَنِهِ، لِكَىْ يُجبروا "الأرْواحَ الشِّرِّيرَةَ" الَّتِى تَلَبَّسَتْهُ عَلَى مُغادَرَةِ جَسَدِهِ !

ولأَنَّ "أبو الحسن" لم يكُنْ مَجْنونًا، ولأنه كانَ عَلَى ثِقَةٍ، بعدَ حَديثِ أمِّهِ، مِنْ أنَّهُ هُوَ الَّذى أصْدَرَ شَـخْصِيًا تِلْـكَ الأوامِرَ التى نقلَتْ إلَيْهِ والِدَتُهُ أخْبارَ

تَنفيذِهـا، فقد ظَلَّ مُصِرًّا عَلَى أنه السُّـلْطانُ، فَأصَـرَّ المُعالِجُون عَلَى ضَرورَةِ الاسْتِمرار فى "عِلاجِهِ" بذَلِكَ الأسْلوبِ المُؤلِمِ المُخيفِ، بَلِ ازْدادَتْ جُرْعاتُ "العِلاجِ" بأن ضاعَفُوا عَدَدَ ضَرباتِ تلك العِصِىِّ طارِدَةِ العَفاريتِ!

١٤

وظَلَّـتْ والدَتُهُ حَريصَةً على زيارَتِـهِ كُلَّ يَوْمٍ، وفى أوَّلِ يومَيْنِ رفَضَ تمامًا الاسْتِماعَ إلى أيَّةِ كَلِمَةٍ منهَا.

لكنْ حدثَ فى اليَوْمِ الثَّالِثِ أن تَغيَّرَتِ الأمورُ.

قالَتْ لَهُ والدتُهُ مُتظاهِرَةً بتَصْديقِهِ: "حَتَّى إذا كُنْتَ أنْتَ الذِى أصْدَرْتَ حَقًّا كُلَّ تِلْكَ الأوامِرِ الَّتى قَلَبَتْ بَغْدادَ رأسًا عَلَى عَقِبٍ، فلَنْ يُصدِّقَكَ أحَدٌ، وستَظَلُّ مَحْبوسًا مُقيَّدًا مَضروبًا فى هَذا المَكانِ الضَّيِّقِ المُظلِمِ الكَريهِ، إلاَّ إذَا اعترفْتَ بأنَّ كلَّ ما قُلْتَهُ مُجرَّدُ أحْلامٍ وتَخيُّلاتٍ تراءَتْ لَكَ فى كابوسٍ!"

سألَها فى قَلَقٍ: "وماذا فى أوامِرِى قَلَبَ بَغْدادَ رأسًا عَلَى عَقِبٍ؟!"

قالَتْ والِدَتُهُ فى أسَـفٍ: "كُلُّ أصْحابِ حَوانيـتِ الماسِ والذَّهَبِ أغْلَقُوها وقد اسْـتَبَدَّ بِهِمُ الخَوْفُ، لأنَّ السُّـلْطانَ صادَرَ بغَيْرِ سَـبَبٍ كُلَّ مَا فِى حانوتِ إبراهيم البغدادى ومَا فِى بَيْتِهِ مِنْ ماسٍ وذَهَبٍ وأمْوالٍ، ثم ألْقاهُ فى السِّـجْنِ.. كُلُّهم يَخْشَى نَفْسَ المَصيرِ!"

سَـأَلَ أبو الحَسَـنِ فى دَهْشَـةٍ: "كُلُّ هَذا لأنَّ السُّـلْطانَ عاقَبَ رَجُلاً أخَلَّ بوُعودِهِ؟"

أضافَتْ والِدَتُهُ: "بلِ امْتَنَعَ الناسُ عن الذَّهابِ إلى القاضِى لِتَقْديم تَظَلُّماتِهِمْ، فقـد أوْقَعَ السُّلْطانُ العِقابَ والتَّشْهيرَ عَلَى جارِنا لأنَّهُ تَجَرَّأَ ولَجَأَ إلى القاضِى طالبًا إنْقاذَهُ من صَخَبِكَ أنْتَ وأصْحابِكَ".

قالَ أبوالحسنِ وقد زادَتْ دَهْشَتُهُ: "بَلْ جارُنا هُوَ الَّذِى اعْتَدَى عَلى حُرِّيَّتِنا!"

قالَتْ والِدَتُهُ: "بل هُوَ القاضى الَّذِى رَأى أنَّكُمْ اعْتَدَيْتُم عَلَى حَقِّ جارِنَا فِى الرَّاحَةِ.. النَّاسُ أصْبَحوا يخافونَ مِنْ عِقابِ السُّلْطانِ إذا اسْتَخْدَموا حَقَّهم فى اللُّجوءِ إلى القاضِى!"

تَزايَدَ قَلَقُ "أبو الحسـن" وهتفَ مُحْتَجًا: "كُلُّ هَذا لأنَّ الجانَّ جَعَلوا مِنِّى سُلْطانًا لِيَوْمٍ واحِدٍ؟!"

قالَتْ والِدَتُهُ: "أنصحُكَ بنِسْـيانِ ذلكَ اليَوْمِ سواءٌ كانَ حَقيقةً أو حُلْمًا، فَقَدْ توقَّفَتْ حركَةُ البَيْعِ والشِّـراءِ فى بَغْدادَ، لأنَّ كُلَّ شَـخْصٍ أصْبَحَ غَيْرَ آمِنٍ عَلَى نَفْسِـهِ مِنْ غَضَبِ السُّـلْطانِ وعُقوباتِهِ الغَريبَةِ غَيْرِ المَفْهومَةِ التى تَعرَّضَ لَهَا عَدَدٌ كَبيرٌ من النَّاسِ".

وتَمَهَّلَتْ قبلَ أَنْ تُضِيفَ: "بَلْ هناكَ ما هُوَ أسْوَأ!"

صاحَ أبوالحسنِ: "هل يُمكِنُ أنْ يكونَ هناك الأسْوأ؟!"

قالَـتْ: "يَقولونَ إنَّ سُـلْطانَنا يُبَعْثِـرُ خزائِنَ بَيْتِ المالِ بغَيْرِ حِسابٍ، بعدَ أنْ عَرَفوا أننى تَسلَّمْتُ مِنْ رَسُولِهِ خمسةَ آلافِ دينارٍ مِنْ ذَهَبٍ!"

ولم يُطِقْ أبو الحسنِ أَنْ يسمعَ أكثرَ مِنْ ذَلِكَ، فَصاحَ مُنادِيًا:

"أيُّهـا المُشـرفُونَ عَلَى المارسْـتانِ.. لقد كُنْتُ مَجْنونًا وأنـا الآنَ صَحيحٌ مُعافًى.. أيُّها الأَطِبَّاءُ، لقد كُنْتُ أحلمُ وَقَدْ أفَقْتُ مِنْ حُلْمِى.."

وتَأَكَّـدَ الأطِبَّـاءُ مِنْ صِدْقِ إفاقَتِهِ من نَوْبَةِ "الجُنونِ"، فَأَطْلَقوا سَـراحَهُ فِى نِهايَةِ اليَوْمِ الثَّالِثِ وهُوَ يَقولُ لِنَفْسِهِ:

"لقد جَعَلَنِى "مَلِكُ الجانِّ" أداةً لأتسبَّبَ فى كُلِّ هَذا الأذى لأهْلِ بغدادَ.."

وتَمهَّلَ ثم أضافَ:

"حَتَّى هُوَ يُقابلُ إحْسـانِى بالإِسَـاءَةِ، مثلُهُ فى هَذا مثل كُلِّ مَنْ كُنْتُ أظُنُّ أَنَّهُمْ أصْحَابى!"

١٥

عادَ أبو الحسنِ يَسألُ نفسَهُ فى إلْحاحٍ بعدَ أن غادَرَ المارسْتانَ:

"كيف أُصْلِحُ ما جعَلَنى مَلِكُ الجانِّ أتسبَّبُ فى إفْسادِهِ؟!"

بَـدأَ بأَنْ أرسَـلَ رَسـولاً إلى تاجِرِ المـاسِ إبراهيم البغدادى فى سِـجنِهِ، يُعاوِدُ طلبَهُ الزَّواجَ مِنْ "نَجمَةِ الصَّباحِ"، بعدَ أنْ عرَفَ أن الخاطِبَ الجَديدَ "منصور الموصلى" قد تَراجَعَ عن مشروعِهِ لِلزَّواجِ منهَا، عندمَا وجدَ والِدَها قَدْ أصبحَ مَحَلَّ غَضَبِ السُّلْطانِ.

لَكِنَّ التَّاجِرَ السَّـجينَ رفضَ أَنْ يُجيبَهُ بشَيْءٍ قائلاً لِرَسولِ "أبو الحسـن":

"لـن أتَّـخِذَ أىَّ قرارٍ بشَأنِ مُسْتَقْبَلِ ابنتِى وأنا تحتَ ضَغْطِ هذا العِقابِ الذى أصابَنى بغَيْرِ سَبَبٍ مَفْهومٍ".

أمَّا الجارُ الَّذِى اعْتكَفَ فِى بَيْتِهِ خَجلاً مِنْ مُقابَلَةِ النَّاسِ بعدَ مَا أصابَهُ من إهانَةٍ وتَشْـهيرٍ، فقد أرْسَلَ إليه "أبو الحسن" يَقولُ: "سَنُراعِى ألا تَصِلَ إليكَ أصواتُنا عندَ إقامَةِ الحَفلاتِ ودَعْوَةِ الأصْدِقاءِ إلى بَيْتِى".

لَكِنَّ الجارَ رَفَضَ أن يَسْـتَمِعَ إلى كَلِمَةٍ مِنْ رَسـولِهِ قائِلاً: "مَا أصابَنِى مِنْ إهانَةٍ لا أسْتَحِقُّها، يَستحيلُ أن يُخفِّفَ منه شَىْءٌ".

هُنَا أدْرَكَ أبو الحسـنِ أنَّـه عِنْدَما أتيحَتْ له فُرْصَةُ الحُكْمِ أسـاءَ اسْـتِخْدامَ سُلْطَتِهِ، وأفْسَدَ الأمورَ الَّتى كانَ يتصوَّرُ أنه سيعملُ عَلى إصْلاحِها.

١٦

كانَ السُّلْطانُ قَدْ قَضَى الأيَّامَ الثَّلاثةَ الأخيرةَ فى مَدينةِ البَصْرَةِ، فلم يَتمكَّنْ مِـنْ مُتابَعَـةِ أخْبار الشـابِّ الَّذى جعلَ مِنْـهُ بَطَلاً لآخِرِ دُعاباتِـهِ فى قَصْرِهِ ببَغْدادَ.

لَكِنَّ الوَزيرَ الأكبرَ نقلَ إلى السُّلْطانِ بعدَ أنْ عادَ، ما تَضْطَرِبُ بسَببِهِ الحَياةُ فى بغدادَ، فرأى السلطانُ أنْ يتنكَّرَ مرَّةً أُخرى فِى زىِّ تاجِرٍ، وانْتظرَ مَعَ تابعِهِ عَلَى مَقْهى يقعُ قَريبًا مِنْ بَيْتِ "أبو الحسن".

وعِنْدَما فوجِئَ أبو الحسنِ برُؤيَةِ التَّاجِرِ، صَاحَ فِى فَزَعٍ: "هَا هُوَ مَلِكُ الجَانِّ يُطارِدُنِى ثانيةً!".. وأسْـرَعَ يُديرُ وَجْهَهُ بَعيدًا عنه لِكَىْ لا يتعرَّفَ عَلَيْهِ، ثُمَّ تَحوَّلَ يسـيرُ فِى اتِّجاهٍ آخَرَ ليتهرَّبَ مِنْ لقائِهِ، لكنَّ السُّـلْطانَ المُتخفِّى أسْرعَ وراءهُ يُناديه.

تَوقَّفَ أبو الحسنِ غاضِبًا ثائرًا: "لماذَا لا تَتْرُكُنى فِى حَالِ سَبيلى يا مَلِكَ الجانِّ؟! لماذا تُحاوِلُ إفْسادَ حَياتى مِنْ جَديدٍ؟!"

قالَ السُّلْطانُ المُتخفِّى فى دهشَةٍ: "أنا تاجرٌ وليسَتْ لى عَلاقَة بالجانِّ ومُلوكِهم! لماذَا تُقابلُ تَحيَّتِى بهَذا السخْطِ والغَضَبِ؟!"

ولم يتوقَّفْ "أبوالحسنِ" عن ثوْرَتِهِ: "هل تناسَيْتَ بسُرعَةٍ أنَّكَ تَسبَّبْتَ فِى أَنْ أكونَ سببًا لإيذاءِ كُلِّ أهلِ بغدادَ؟! كيف تتجاهَلُ الحَبْسَ والضَّرْبَ اللَّذيْنِ عانَيْتُ منهمَا بسببكَ ثلاثةَ أيامٍ بطُولِهَا؟!.. ابتعِدْ عنِّى.. لا أريدُ أَنْ تكونَ بينى وبينَكَ معرفةٌ بعدَ الآنَ!"

قالَ السُّلْطانُ المُتخفِّى وقد ازدادَتْ دهشتُهُ: "قضَيْتُ الأيامَ الثلاثةَ الماضيةَ بعيدًا عَنْ بغدادَ، فكيفَ أكونُ مَسْئولاً عَنْ سَجْنِكَ واضْطِرابِ الأُمورِ فِى العاصِمَةِ؟!"

ولم تخفُتْ حِدَّةُ الغَضَبِ فى نَبْرَةِ "أبو الحسن":



"دعَوْتُكَ إلى منزِلى وقدَّمْتُ لكَ طَعامِى، ثم تَسبَّبْتَ فى اتّهامى بالجُنونِ، بعدَ أن أعطَيْتَنى الفرصةَ لإيذاءِ النَّاسِ!.. ابتعِدْ عنّى.. أنا لا أريدُ رؤيةَ وجهِكَ يا مَلِكَ الجانِّ المُنذِرَ بالشَّرِّ!.."

قالَ السُّلْطانُ ليُخفِّفَ عنه:

"لقد ظَننْتُ أنا نَفْسِى أَنَّ السَّاعاتِ التى قضَيْتَها فى بَيْتِكَ كانَتْ حُلْمًا نسجَهُ حَوْلِى جنّى ظَريفٌ قابلَنى فَوْقَ جسْرِ بغدادَ بعدَ أن اتخذَ شكلَكَ ومَظْهرَكَ، وقد جئْتُ الآنَ لأراكَ ثانيةً وأتأكَّدَ أنكَ إنسانٌ له وجُودٌ حقيقِىٌّ ولسْتَ خيالاً صوَّرَتْهُ لِى أوْهَامِى.. الآنَ اتَّضحتْ لى الأمورُ، فإذا كُنْتَ تقولُ إنكَ كنتَ ضحِيَّةَ مَلِكِ الجانِّ، فلا شَكَّ أننِى أَنَا أيضًا كنتُ أحدَ ضَحايا ذلكَ المَلِكِ الخَفِىِّ نَفْسِهِ!"

وكانَتْ لهجةُ الصِّدْقِ فى حَديثِ التَّاجرِ، أو السُّلْطانِ المُتخفِّى، كافِيَةً لِيتَخلَّى "أبو الحسن" عن اتّهاماتِهِ ويَقولُ:

"لَم أكُنْ أرَى الأمُورَ على هَذا النَّحْوِ، لذلكَ أرجُو أن تَقْبَلَ اعْتِذارى عَنِ اتهامِكَ.. لقد هزَّتْنِى الأحْداثُ، فقد كُنْتَ أيها التَّاجرُ آخِرَ شَخصٍ رأيْتُهُ قبلَ أَنْ يستولِىَ مَلِكُ الجانِّ الشِّرّيرُ على حَياتِى!"

ثم تَمهَّلَ قبلَ أن يُضيفَ: "ولِكَىْ أعبِّرَ لكَ عن أسَفِى لِمَا وجَّهْتُهُ إلَيْكَ من اتّهاماتٍ، أرجو أن تقبلَ دَعْوَتى وتُشارِكَنى مائِدَتِى هَذا المَساءَ أيضًا"..

وهَكذا ولِلمَرَّةِ الثَّانيَةِ، اسْتَضافَ أبوالحسنِ فى بَيْتِهِ ذلكَ التاجرَ الذِى لا يعرفُهُ.

١٧

وعـرَفَ السُّـلْطانُ المُتخفِّى أثناءَ تناوُلِ الطَّعامِ التَّفاصيـلَ الدَّقيقَةَ لِكُلِّ ما حَدَثَ لأبى الحسن، فقالَ لنفسِهِ:

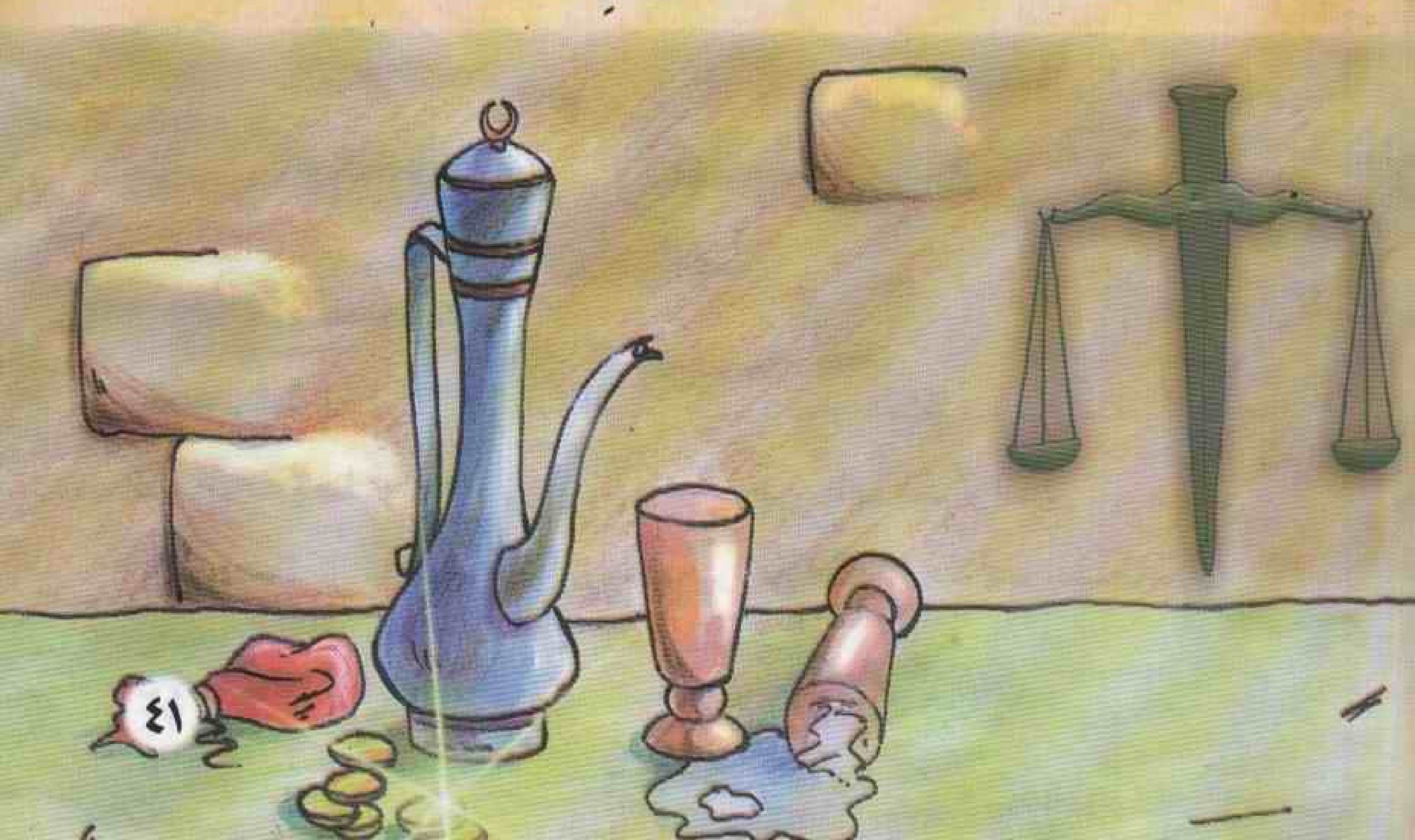
"إذَنْ أعْطِيَهُ فُرْصَةً لإصْلاحِ مَا أفْسدَهُ فى المَرَّةِ الأولَى".

لذلك فإنَّهُ عَلَى غَفْلَةٍ مِنْ "أبو الحسن" وضعَ له لِلمرَّةِ الثَّالِثةِ المادَّةَ المُنوِّمَةَ فى كأسِ عَصيرِهِ، ونقلَهُ نائمًا لا يَعِى شَيئًا إلى قَصْرِهِ كَمَا حَدَثَ مِنْ قَبْلُ.

وأفـاقَ أبـو الحسـن هَـذِهِ المَـرَّةَ عَلَـى ألْحـانِ مُوسـيقَى وغِنـاءٍ، ووجَدَ "زَهْرَ الياسَمينِ" تُطِلُّ عليه بوَجْهِها المُشرقِ الصَّبوحِ وهِىَ تَقولُ:

"صباحٌ سعيدٌ يامَوْلاىَ السُّلْطانَ.."

وفى هَذِهِ المَرَّةِ لم يتكاسَلْ ولم يَتْرُكْ نفسَهُ للأحْلام ولا لأيْدِى الوَصيفاتِ، بل قفزَ مِنْ فِراشِهِ واقِفًا وهُوَ يَصيحُ فى فَزَعٍ وقد رفعَ يَدْيهِ نَحْوَ السَّماءِ:



"أدعوكَ يارَبَّ السَّماواتِ أن تُنْقِذَنى مِنْ هَذا العالَمِ الشِّرِّيرِ المَسْحور.. أدْعُوكَ أن تُجنِّبَنِى الوُقوعَ ثانِيَةً فيما أسأتُ به إلى الناسِ فى بَغْدادَ.."

تَقدَّمَ إليه المُشرفُ على شئونِ القَصْرِ وقالَ فى أدبٍ شَديدٍ:

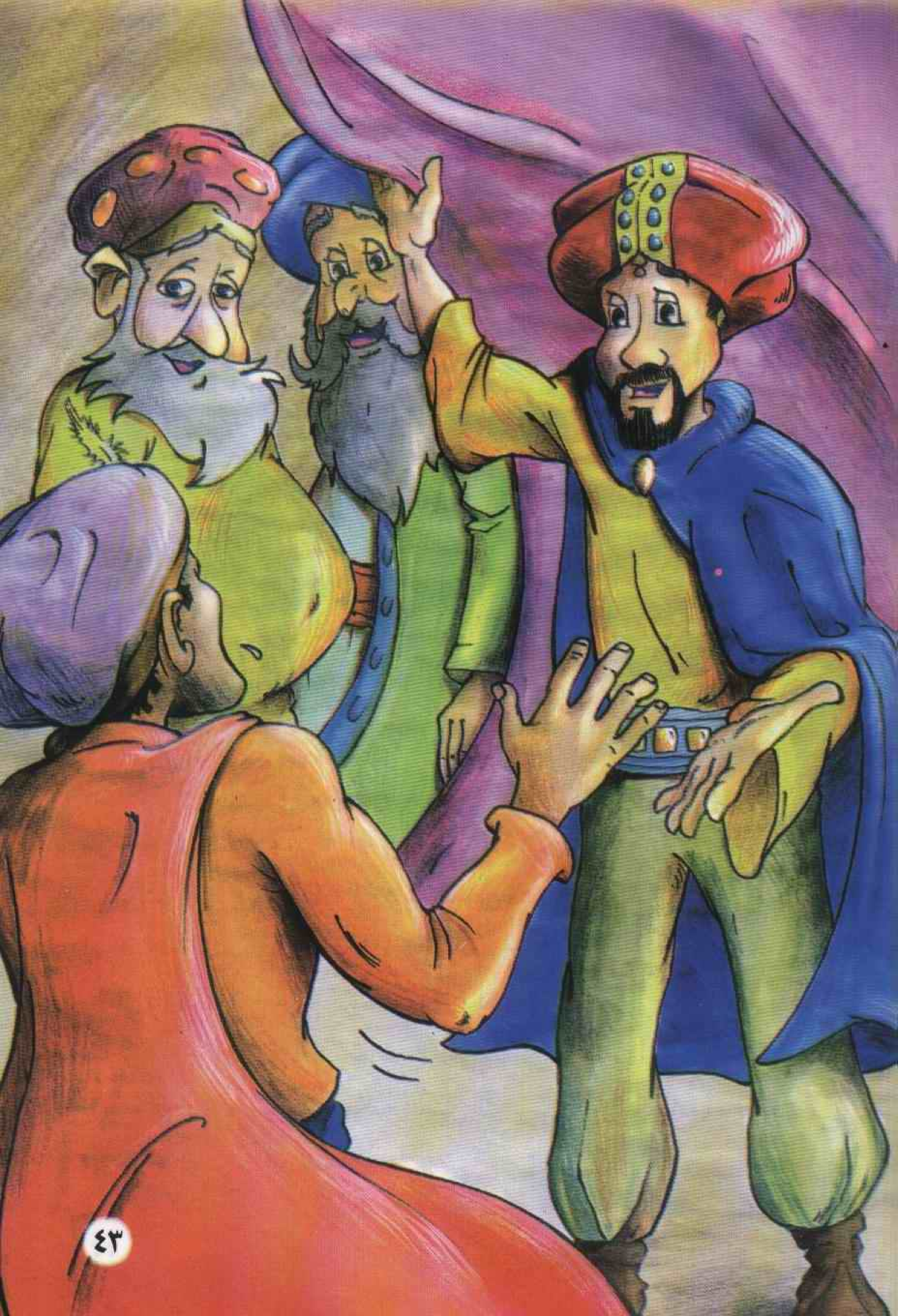
"اطْمَئِنَّ يا مَوْلاىَ.. لقد وضَعْنا فى برنامِجكم اليَوْم إصْلاحَ الأحْوالِ التى فسدَتْ فى بغدادَ بسَبَبِ أحْكام عَظَمَتِكُم السَّابقةِ!"

وكانَ أبو الحسن قَدِ اعْتَزمَ أنْ يواصِلَ دَعواتِه، لَعَلَّ الله يُنْقِذُهُ مِنْ هَذِهِ المِحْنَةِ الجَديدَةِ، لَكِنْ عِنْدَما سَمِعَ حِكايَةَ "إصْلاحِ الأحْوالِ"، الْتَفتَ فى الحالِ إلى المُشرِفِ، وقالَ فِى حِدَّةٍ:

"إذا كانَ مَلِكُ الجانِّ قَدِ اعْتَزمَ حقًّا مُساعَدَتِى عَلى إصْلاحِ مَا أفْسَدْتُ، فعَلَيْكَ أنْ تُسْرِعَ فى الحالِ بعَقْدِ "مَجْلِسِ الحُكْم"، وَأَنْ تَجْمَعَ أَمَامِى كُلَّ مَنْ قَامُوا بتَنْفيذِ أحْكَامى السَّابقةِ.. أنا آمرُهم مُنْذُ الآنَ أنْ يُعيدوا لِكُلِّ إنْسانٍ ما أخَذوه مِنْهُ، وأنْ يَقُوموا بتَعْويضِ مَنْ أصابَهم الأذى فى مالِهم أو أنْفُسِهم بسَبَبِ أحْكامٍ وأوامِرَ صدرَتْ مِنَّا ولا تَسْتَنِدُ إلى الشَّريعَةِ أو القانونِ!"



هنا وجَدَ السُّلْطانُ أنَّ "أبو الحسن" قد أصْبَحَ حَكيمًا بما فيهِ الكِفايةُ، وأنَّ الدُّعابَةَ قَدْ وصَلَتْ بذَلِكَ إلى نِهايَتِها، فخرجَ مِنْ خَلْفِ السِّتار الَّذِى كانَ يَخْتَفِى وراءهُ، فهتفَ كُلُّ مَنْ فى المَكانِ وقد انْحَنوا فى احْتِرامٍ: "مَوْلانا السُّلطانُ.."



وفوجئ "أبو الحسن" عِنْدَما وجَدَ نفسَهُ وَجْهًا لِوَجْهِ أمامَ سُلْطانِ بلادِهِ الَّذى تَصوَّرَ مِنْ قَبْلُ أنهُ مُجرَّدُ تاجرٍ غريبٍ، أو "مَلِكُ الجانِّ"، فسقطَ أمامَهُ عَلى ركبَتيْهِ وقد اعْتراهُ الرُّعْبُ والفَزَعُ.

لَكِنَّ السُّلْطانَ ساعَدَهُ عَلى الوُقوفِ وهُوَ يَقولُ: "وقد أعددْتُ لكَ مُفاجأةً أخْرَى يا "أبو الحسن"، بعدَ أَنْ قُمْتَ بإلْغاءِ أوامِركَ السَّابقَةِ.."

ومِنْ وَراءِ السِّتارِ ظهرَ تاجرُ الماسِ إبراهيم البَغْداديُّ، والسيد فاضل جارُ "أبو الحسن".

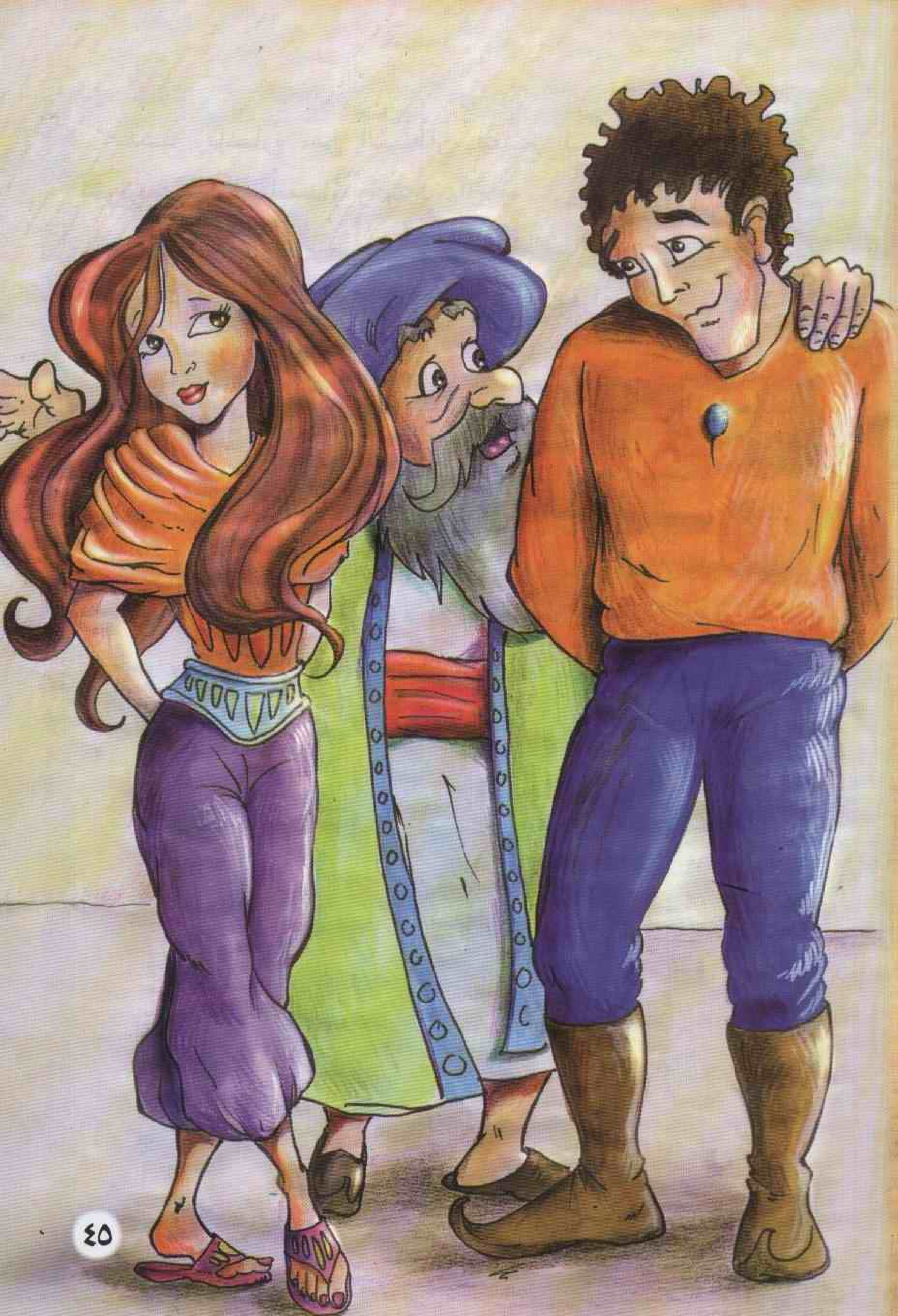
وواصَلَ السُّلْطانُ حَديثَهُ وعلى شفَتَيْهِ ابْتِسامَةٌ: "عَلَيْنا نِسْيانُ الماضى، فَبغيْرِ أخْطاءٍ كَبيرةٍ لَنْ يتعلَّمَ الإنْسانُ الحِكْمَةَ العَميقةَ!"

والتفتَ إلى جَارِ "أبوالحسن" مُتَسائلاً: "أَلَيْسَ كَذلِكَ يا سيد فاضل؟"

قالَ السيد فاضل: "لن يكتشفَ الحِكْمَةَ يا مَوْلاىَ إلا مَنْ كانَ عَلى اسْتِعْدادٍ لِتعلُّمِهَا.. لقد عوَّضْتَنى يا مَوْلاىَ عَنْ كُلِّ مَا أَصابَنى، لَكِنْ لم يكُنْ مِنَ الحِكْمَةِ أَنْ أتمادَى فِى اسْتِخْدامِ حَقِّى بالشَّكْوَى الدائِمَةِ إلى القاضِى مِنْ مَرَحِ جيرانى الشَّبابِ.."

عندئذٍ الْتفَتَ السُّلْطانُ إلى تاجر الماسِ مُتَسائِلاً: "ولعلَّكَ أيُّها التاجرُ إبراهيم قَدِ استطعْتَ الآنَ أَنْ ترَى وَجْهَ الصَّوابِ فِى بَعْضِ الأمُورِ؟!"

قالَ تاجرُ الماسِ: "أشكرُ مَوْلاىَ لأنه أمرَ بردِّ كُلِّ أَمْوالِى التِى سَبَقَ أَنْ صودِرَتْ، فالإنْسانُ يَظَلُّ فى حاجَةٍ إلى أَنْ يتعلَّمَ حَتَّى آخِرِ أيام حَياتِهِ.. لقد اتَّضَحَ لى أنه لَمْ يكُنْ مِنَ الحِكْمَةِ تَفْضِيلُ الثَّراءِ عَلَى الحُبِّ الصَّادِقِ، فأتسبَّبَ فِى تَعاسَةِ ابْنَتى و"أبو الحسن" يا مَوْلاىَ".



عِنْدَئذٍ وبإشارةٍ من السُّلْطانِ، انفَتحَ السِّتارُ الخَلْفِىُّ عن آخِرِه، فظهرَتْ مِنْ خَلْفِهِ شابَّةٌ رائِعَةُ الجَمالِ..

صاحَ أبو الحسن وهو يندَفِعُ ناحِيَتَها: "نَجمةُ الصَّباحِ!"

قالَ والِدُها وهو يضمُّ ابنَتَهُ و "أبو الحسن" تَحْتَ ذِراعَيْه:

"هِىَ له يا مَوْلاىَ.. وهُوَ لها.."

قالَ السُّلْطانُ ضاحِكًا وهُوَ ينظرُ إلى "أبو الحسن" نَظْرةً حافِلَةً بالمَعانى:

"الفَضْلُ فى كُلِّ هَذا يَعودُ إلى "مَلِكِ الجانِّ"!.. أَلَيْسَ كَذَلِكَ يا "أبوالحسنِ"؟!

وأحْنَى أبو الحَسَنِ رأسَهُ لِكَىْ لا يُلاحِظَ السُّلْطانُ الدَّمَ الذى انْدَفَعَ حارًّا إلى وَجْهِهِ وهُوَ يُفكِّرُ فى أن يعتذِرَ، فَيجدُ نفسَهُ، بدلاً مِنْ ذَلِكَ، يُحاولُ اخْتِلاسَ النَّظَرِ إلى وَجْهِ "نَجْمَةِ الصَّباحِ"!!





أنشطة حول القصة

نقترح عليك أن تشترك فى أحد أو كل الأنشطة التالية :

١ - حاول أن تشرح لماذا رأى السلطان الحقيقى أنه يجب الاكتفاء بما فعله أبو الحسن من تغليب الانتقام على العدالة، وأنه عندما أتيحت له فرصة الحكم أساء استخدام سلطته.

٢ - تصور أنك أصبحت سلطانًا ذات يوم، فهل تسعى عندئذ لتحقيق العدالة حتى لَوْ تعارضت مع مصالحك أو عواطفك الشخصية؟ اذكر أمثلة لذلك.

٣ - هناك حدود لاستخدام كل حق، ويوجد فى القانون ما يسمى "إساءة استخدام الحق"، فهل تستطيع أن تشرح المواقف التى أساء فيها بعض أبطال هذه القصة، استخدام حقوقهم؟

٤ - حاول أن تختار اسمًا جديدًا لهذه القصة، وأن تذكر سبب اختيارك لهذا الاسم.

٥ - حاول أن تختار أحدَ مواقف القصة، وتعيد كتابته فى شكل حوار تمثيلى.

٦ - حاول أن ترسم أحد مواقف القصة، مُعتمدًا على خيالك وابتكارك.

